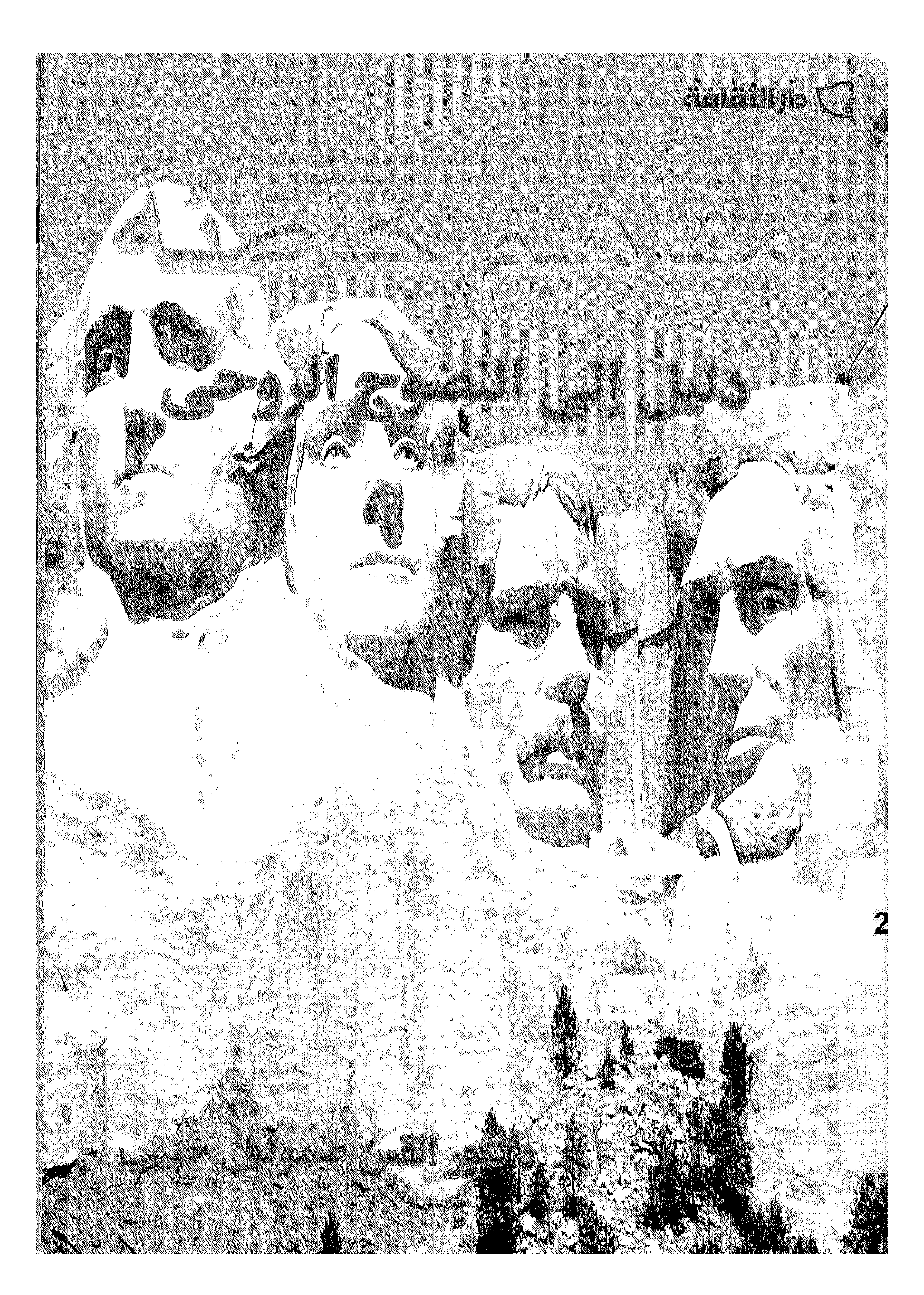

دار الثقافة
مفاهيم خاطئة
دليل إلى النضوج الروحي
2
دكتور القس صموئيل حبيب

اهداءات ٢٠٠١
دار الثقافة
الهيئة الإنجيلية والقبطية

مفاهيم خاطئة

دليل إلى النضوج الروحى

دكتور القس
صموئيل حبيب



طبعة أولى

مفاهيم خاطئة
صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨- القاهرة

١٠/ ٧٥٢ ط١/١-١/ ٩٨
رقم الإيداع بدار الكتاب: ٥٠٦٤ / ٩٨
ISBN 977 - 213 - 433 - 0
جمع وطبع بمطبعة سيوبرس
تصميم الغلاف: سها ناجي

مقدمة الدار

مفاهيم خاطئة- الطريق إلى النضوج الروحى- من أقوى ما كتب دكتور القس صموئيل حبيب، فهو يقدم فى عبارات قوية وواضحة ومقنعة تصحيحاً لمفاهيم خاطئة تسود كل من الحياة الكنسية والاجتماعية.

فى هذا الكتاب يستخدم دكتور القس صموئيل حبيب أسلوباً جديداً، فهو يعالج مجموعة من القضايا الساخنة التى يتحير الكثيرون أمامها، فيطرح كل قضية على حدة، ويناقش كل أطراف القضية ويحلل كل ملابساتها، ويبحث فى الرأى والرأى الآخر، ويقيِّم معطياتها الدينية والموروثة ثم يصدر الحكم.

هذا الكتاب نموذج لأسلوب الحوار الراقى الذى يبتعد عن الاتهامات والهجوم والتخويف، ويستخدم المنطق والتفنيد والشرح.

هذا الكتاب لا غنى عنه لكل من الوسط الدينى والاجتماعى، فالمفاهيم الخاطئة لا تبنى على فهم خاطىء للمعتقدات الدينية فقط، ولكنها تستند إلى عادات وتقاليد سائدة فى المجتمع.

دار الثقافة

محتويات

تمهيد

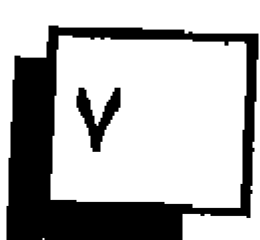
وُلدت المسيحية فى بيئات عديدة فى هذا العالم. ففى القرن الأول الميلادى تواجدت المسيحية فى عديد من دول البحر المتوسط والدولة الرومانية الكبرى فى تلك الأيام. دخلت المسيحية إلى بيئات عديدة، واحتكت بمفاهيم متنوعة.

والمسيحية -أصلاً- وُلدت فى بيئة يهودية، ارتبطت بمعانٍ دينية وطقوس وعبادات متنوعة. ولا شك أن التعاليم اليهودية كانت تترك بصماتها على الحياة الدينية، فهى الدين السماوى الأول الذى دعا إلى عبادة الإله الأوحد. ويمكنك أن تجد بعض النظم العبادية، والطقوس، والقوانين تُمارس فى الحياة العادية باسم المسيحية أو غيرها من الديانات. فلا شك أن التكوين الفكرى المسيحى أو الإسلامى أو غيرهما قد تأثر بمبادىء يهودية.

فكل دين وُلد داخل حضارة معينة، تأثر بحضارتها. فإن كانت الحضارة فى مجموعها هى الحياة الإنسانية بمشتملها، فالدين يرتبط بأساليب المعيشة والتصرف والسلوك فى حضارة معينة، يقبل منها ما يريد، ويرفض ما لا يتفق معه.

المشكلة فى هذا تتمثل فى أن بعض أساليب الحضارة -عند بعض الناس- تصبح جزءاً من التراث الدينى، ويتمسك بها البعض على أنها جزء من صميم العقيدة. ومتى أصبحت -تلك الأساليب- عقيدة صار تغييرها مستحيلاً، ولكنها إن بقيت جزءاً من الحضارة أمكن تطويرها.

وارتبطت المسيحية بالعهدين القديم والجديد للكتاب المقدس. وفى العهد



القديم كان تعامل الله مع شعب وأمة. وبعض الممارسات والشرائع كانت ترتبط بالتكوين الجماهيرى لشعب سياسى. ولما كان هناك خلط بين الدين والدولة عند اليهود، فقد اختلطت المبادىء: ما هو سياسى وما هو قانونى منها، وما هو روحى.

ومع حركات التحرر، أصبح الكتاب المقدس فى كل يد. وأصبح من حق رجل الدين المتخصص، والعلمانى غير المتخصص تفسير كلمة الله وشرحها. وقد ظهرت نظريات عديدة فى التفسير والشرح، منها ما يتفق والقيم، ومنها ما هو خيالى غير واقعى.

سمحت المسيحية عبر تاريخها لكثيرين أن يشرحوا ويفسروا الكتب المقدسة. وكل دين يرتبط فى مجتمعه بحضارته وثقافته، كما أن كل دين فى بيئته يرتبط بتراث تاريخى سابق. وليس من السهل فصل الدين عن الحضارة والتراث. من هنا دخلت مفاهيم عديدة، ارتبطت بالإيمان المسيحى، ووصلت إلينا.

ومنذ البداية، اعتمدت المسيحية على الفكر الحر، والاختبار الشخصى. فالذين يدخلون إلى الإيمان المسيحى يعبِّرون عن اختباراتهم الإيمانية التى يعيشونها. فظهرت التعددية والتنوع الفكرى. واختبارات الإنسان ترتبط بمفاهيمه التى عاشها ويعيشها فى مجتمعه. ولما كانت المسيحية قد أتاحت حرية الفكر وتنوعه. فقد ظهرت آراء عديدة فى بيئات متنوعة، أتاحت تعدد أساليب فهم القيم الروحية والإيمانية.

كما ظهرت تيارات تدعو إلى التطبيق الحرفى للوحى. وليس صواباً أن نأخذ أقوالاً كتابية نفصلها عن واقعها. فهناك عقائد بكاملها بُنيت على

آيات أو أقوال بمفردها، لو تابعنا دراستها، لعرفنا لماذا قيلت فى الوحى إذ ارتبطت بالظروف التى نشأت فيها، ولأدركنا أن هذه العقائد ليست مطلقة أو عامة. فالتفسير العلمى واللاهوتى الصحيح لأية أقوال أو أعمال يحتم أن نربطها بالظروف التى حدثت فيها، والأسباب التى قيلت لأجلها. وبارتباط النص بالقرينة، يمكننا أن نستخلص الفكر الذى يقودنا اليوم.

هذا إلى جانب وجود اتجاه دينى انفعالى عاطفى متشدد، واتجاه عقلانى متزن. وتتنوع اختبارات الناس وسلوكهم بين النوعين بصورة واضحة. ينتج عن ذلك تعددية فى الفكر، وفى فهم القيم، وفى ممارسات العبادة.

وعقيدة الإنسان -ولا شك- تسوسه وتقوده. وأفكار الإنسان -ولا شك- تحدد هويته، وتدفعه فى حياته للتقدم أو التخلف. لذا كان من المهم جداً على الإنسان أن يصحح بعض المفاهيم الأساسية الخاطئة التى تتحكم فى حياته ومسيرته. ومن ثم يتجه الإنسان إلى الحياة المُرضية البناءة.

ورغم أننا فى عصر التقدم العلمى، ونحن نتمتع بالتكنولوچيا الجديدة والمعاصرة، لكننا نجد تشدداً دينياً أصولياً يعبر عن نفسه بأنه يحارب التقدم العلمى. وسوف يسير العلم مع الدين جنباً إلى جنب. وبرغم أن الأصوليين يستمتعون بالتكنولوچيا المعاصرة، لكنهم يرفضون الفكر الدينى الذى يبتعد عن الفهم الحرفى للنص، والمفاهيم السلفية للإيمان.

ونحن نتمسك بالإيمان أساساً، وبشخص السيد المسيح مركزاً للفكر والرؤية، ونريد أن نرى العلاقة أصيلة بين حياة الإيمان من جانب والتقدم الفكرى من جانب آخر. نريد للإيمان مكانه، وفى نفس الوقت نريد أن نعيش بعقلانية. نريد أن نعيش العصر بكل ما فيه من تقدم علمى وتكنولوچى.

ونرتبط بالإيمان العميق، ونحن نستوحي أسلوب الفكر والحياة والقيم من الوحي المقدس، الذي ينير لنا الطريق في مسيرة الحياة.

وجدير بالاهتمام أننا نريد أن نعيش الواقع، ونطور الحياة للأفضل. فقد جاء السيد المسيح لتكون لنا حياة أفضل وأوفر. والحياة في مشتملها هي الحياة المقصودة. فالإنسان لا يتكون من جُزُر مستقلة عن بعضها. روح وجسد، بل كيان واحد متماسك لا ينفصل عن بعضه البعض. فللجسد تأثير على الروح، وللعقل تأثير على الجسد.

ومفهوم "الروحانية" لا ينفصل عن كيان الإنسان الكامل. فليست الروحانية عالماً غريباً عن واقع الأرض. فالملح للأرض، والنور للعالم، ولا يمكن فصل الملح عن الواقع، ولا النور عن المكان.

وهناك -ولا شك- مفاهيم أخرى سائدة متواجدة في أماكن عديدة في مجتمعاتنا الدينية الإيمانية. من هنا، كان ما يهمنا في هذا الكتاب، ليس فقط علاج الفكر في المفاهيم السائدة التي وردت فيه، بل إعطاء أسلوب للفكر، واتجاه للدراسة يعاون القارىء في مواجهة العديد من أساليب الفكر المتواجدة في المجتمع الروحي.

فالأسلوب المستخدم في علاج المواقف وتنوير الفكر، يهدف أساساً إلى إنشاء دليل واضح للنضوج الروحي. والنضوج الروحي لا ينفصل عن النضوج العاطفي والفكري. فكلها تنصهر في بوتقة واحدة تعاون الإنسان على حياة أفضل.

المؤلف

(١)

الكفر بالذات
هـــو
الأساس الأول للنمو الروحى .

تحدث كثيرون عن "الذات" باعتبارها سر الشر فى حياة الإنسان. وينادى البعض بأن التحرر من الذات، أو اختفاء الذات هو طريق النجاح والتقدم فى الإيمان. وقد تحدث القديس توما الكمبيسى عن الكفر بالذات كطريق للإيمان.

ربط الكثيرون بين الذاتية والأنانية. واعتبر البعض أن هذه الاتجاهات هى تفسير لدعوة المسيح لتلاميذه بإنكار الذات. فقد ربط السيد المسيح أتباعه بإنكار الذات وحمل الصليب.

وقد فهم بعض الناس خطأ تفاسير الموعظة على الجبل بأنها دعوة لإذلال النفس، والإقلال من شأنها. وهناك اتجاهات دينية ظهرت فى العالم تدعو إلى الإساءة للذات، واحتقار الجسد. وقد أخذ القديس توما الكمبيسى هذه الاتجاهات الفكرية إلى طريق أبعد عندما استخدم التعبير "الكُفر بالذات".

وهناك ولاشك، مفهوم خاطىء وراء هذه كلها. فالإنسان -أساساً- لا يقدر أن يتحرر من ذاته. فالإنسان هو ذاته، ولو تخلص الإنسان من ذاته يموت، فلا يتواجد. فالذات موجودة قائمة ومستمرة.

والإنسان ملتزم برعاية ذاته ومسئول عنها أمام الله. قال المسيح: "تحب قريبك كنفسك" (متى ٢٢:٣٧-٤٠). بمعنى أنك تحب قريبك كما تحب نفسك. فحب الذات دعوة إلهية للإنسان. والإنسان مدعو للاهتمام بذاته. يقوتها ويربِّيها ويعلِّمها. وكلما حقق الإنسان ذاته كان ناضجاً وواعياً ومسئولاً.

فلا يجوز للإنسان أن يهمل مسئولياته تجاه نفسه، وإلاّ فإنه يكون قد أهمل مسئوليته الأولى التى أعطاها الله له. ومن يحقق ذاته يقدر أن يعاون الغير على تحقيق ذاته.

ويدعو البعض لاحتقار الذات. وهذا فى حد ذاته خطأ. فذات الإنسان لها قيمة عظيمة القدر. إنها الذات التى مات المسيح من أجلها، فلا يجوز الإقلال من قيمتها. ويتحدث كاتب المزمور عن القيمة التى أعطاها الله لذات الإنسان، فقد كلله بالمجد والبهاء. أليس الإنسان خليقة الله؟ ألم يعلن الله أن خليقته حسنة جداً؟

ويتحدث البعض عن الجسد، الذى وصفه الرسول أحياناً أنه "جسد الخطية". ولا شك أن الخطية دخلت الجسد. فهو المكان المادى الذى تتضح فيه الخطية. لكن المسيح أيضاً جاء فى الجسد، وكان ذلك تقديساً للجسد. فالصواب والخطأ اتجاهان موجودان فى الإنسان. ويعيشان معه كل العمر. والإنسان بإرادته يختار الصواب أو الخطأ.

وجسم الإنسان يحتوى على دوافع وميول طبيعية.، كل هذه الميول لا غبار عليها. فكل الدوافع الفطرية فى الإنسان طبيعية. والإنسان بإرادته يحوِّل الدوافع للسلوك الصحيح أو السلوك الخطأ. جاء السيد المسيح إنساناً

كاملاً. عاش فى الجسد البشرى بكل ميوله ودوافعه الطبيعية. والمشكلة فى اختيارات الإنسان للصواب أو الخطأ.

حاول بعض الناس أن يفسروا أن الخطية عند آدم ارتبطت بالميل الجنسى. والميل الجنسى ميل مقدس وطاهر. وخطية آدم كانت العصيان. ولا يجوز تحويل الخير إلى شر. فالحياة الجنسية عند رجل وامرأة ارتبطا بعقد الزواج حياة طاهرة، أعطاها الله للإنسان نعمة من نعمه العظيمة.

كما حاول البعض أن يفسروا جسد المسيح بطريقة مختلفة. فتصوروا أن جسد المسيح لم يكن الجسد الحقيقى بكل ما فيه من غرائز وميول عاطفية وإنسانية. فإن كان المسيح إنساناً كاملاً -بكل معنى الكلمة- فجسده هو الجسد العادى بكل ما فيه من ميول بشرية. وكان السيد المسيح مجرّباً فى كل شيء مثلنا بلا خطية (عبرانيين ٤:١٥). وغرائز الإنسان جزء من الجسد، لا غبار عليها. والشر هو فى كيفية توجيه الميول والغرائز للخير أو للشر. فلا يجوز تحريف الفكر فى اتجاهات خاطئة. فالسيد المسيح هو الله الذى ظهر فى الجسد، الذى صُلب من أجل تحرير الإنسان من الخطية. السيد المسيح هو المَثَل الذى ينبغى أن نتتبع خطواته (تيموثاوس الأولى ٣:١٦، بطرس الأولى ٢:٢١).

لا يحتاج الإنسان أن يصب جامات غضبه على جسمه، أو على ذاته. فالذات ليست هى الشر أو الخير. إرادة الإنسان هى التى تصنع الشر أو الخير. واختيارات الإنسان هى التى تقرر نوع السلوك الذى يعيشه.

ليست كل الأنانية شراً. فالأنانية -أحياناً- تدفع الإنسان للاهتمام بذاته التى ائتمنه الله عليها. ولكن الأنانية تصبح شراً إذا ما أعطى الإنسان

نفسه على حساب الغير، أو على حساب الصالح العام. اهتمام الإنسان بمصالحه الشخصية خير لأنها مسئوليته. لكنها لا يجوز أن تُبنى على طريق خاطىء أو على حساب الصالح العام. وليست كل الكبرياء شر. فكبرياء الإنسان اعتزاز بذاته، ومواهبه وقدراته التى أعطاها الله له. ولكن التعظُّم على الغير هو الشر.

من هنا نرى أن حب الذات ليس شراً. والإنسان ملتزم أمام الله بأن يحترم ذاته ويكرِّمها ويقدِّرها، ويحققها، لتحمل مسئوليتها أمام الله والناس. والذى يفتخر بنفسه لا يجوز له أن يحتقر الغير أو يقلل من قدره أو يشوهه.

فالإنسان المتواضع هو الذى يشعر فى أعماقه أن ما عنده هو من الله. هذا هو التواضع. فالتواضع لا يعنى احتقار الذات، أو الإقلال من قيمتها. لكننا نتواضع تحت يد الله، معترفين بأنه المصدر الحقيقى للقوة والنجاح وتحقيق الذات. والتواضع هو أننا ندرك حاجتنا المستمرة لله. فلا يخدعنا أحد أن لنا من البر الذاتى ما يشبعنا. فنحن منه وله. فلا كفاية لنا فى ذواتنا، بل فى الله الذى يسهر علينا ويرعانا. وهذا هو المعنى الحقيقى لإنكار الذات. فالله لا يريدنا أن نحتقر ذواتنا، ولا أن نمارس إذلال ذواتنا. بل يريدنا الله أن نحترم الذات التى مات المسيح لأجلها.

فإن كنت أشعر بأنى متقدم فى شىء ما، لا يجوز لى أن أكذب، وأقول إنى غير متقدم، وأظن أن هذا تواضعاً. وإن كنت أثق فى قوتى فى جانب معين، فلا يجوز لى أن أكذب وأقول إننى ضعيف. فقول الحق يرتبط بالإيمان الصحيح. ومتى افتخرت بشىء متميز عندى، فأنا أربط ذلك

بنعمة الله التى أعطتنى ذلك.

والمؤمن مدعو بأن يكون المسيح مركزاً لحياته. فلو تحوَّلت الذات لتصبح المركز، والمسيح لا مكان له، أصبحت ذات الإنسان هدفاً. وبذلك يهتم الإنسان بذاته ويهمل غيره، ويتغاضى عن الصالح العام. وكلما كان المسيح مركزاً، كانت الذات قوية وناجحة، وكان اهتمام الإنسان بالغير قوياً.

فمركزية المسيح فى حياة الإنسان، تدفعه للإيمان العميق، كما تدفعه للاهتمام بالغير. ومركزية المسيح فى حياة الإنسان تدفعه لاحترام ذاته، ورعايتها. فالحياة التى تتخذ المسيح مركزاً لها حياة تسعى للأفضل. واحترام الإنسان لذاته نتيجة طبيعية لتواجد المسيح مركزاً له.

فالدعوة لإماتة الذات دعوة غير واقعية، والدعوة للكُفر بالذات لا ولن تتحقق. والذى يجد ذاته، ويرضى عنها، ينضج ويعيش الواقع الإيمانى الصحيح. فالرضا عن الذات، يجعل الإنسان واعياً مسئولاً. والذى لا يرضى عن ذاته يعانى من أمراض نفسية وأسقام عديدة. فالذى يعيش حياة التصالح مع الله والمجتمع يرضى عن نفسه. وبالتالى يتقدم فى حياته.

الذات هي الإنسان. وهي موقع رضا الله عن الإنسان، ورضا الإنسان عن نفسه.

(٢)

طريق التقدم هو اكتشاف الخطأ والشعور بالذنب، وتوجيه اللوم للذات، مع التبكيت المستمر.

لا يوجد من لا يخطيء. وليس على الأرض إنسان معصوم من الخطأ. ولكن هناك من يخطيء بإرادته، فهو يعرف أنه يخطيء ويرتكب الخطأ. وهناك من يخطيء وهو لا يعرف. صلى المسيح وهو على الصليب طالباً الغفران للذين صلبوه، لأنهم لم يكونوا يعرفون ما يفعلون.

وحياة الإنسان العادية مرتبطة بمفهومه الفكرى. فهناك من يخطيء ولا يدرك أنه أخطأ. ويشعر الإنسان بالخطأ الجسيم متى كان الخطأ ضد شخص، أو متى كان الخطأ واضحاً يشوهه أمام الغير. وأخطاء السهو عديدة فى حياة كل إنسان، كما أن الأخطاء التى تصدر من الإنسان بسبب جهله وعدم معرفته لا حصر لها.

ولكل إنسان حسنات. فكل واحد فيه خير. وأحياناً ننسى أن الإنسان الشرير يتصرف فى مواقف معينة بأخلاقيات كريمة جداً. فالخير والشر متواجدان فى الإنسان، وإرادة الإنسان تختار ما تريد فى الموقف المناسب.

يدّعى بعض الناس أن الإنسان يصل إلى حالة من القداسة والطُهر ما يجعله طاهراً كليةً. وهذا مستحيل. فالإنسان بشر، معرّض للضعفات. وفى

مراجعتنا للسجل المقدس نرى كيف أن بعض كبار القديسين الذين استخدمهم الله كانت لهم ضعفات وأخطاء وسقطات.

والاعتراف بالخطأ التزام الأمانة تجاه الإنسان ذاته. فكلما أخطأ الإنسان، وعرف خطأه، كان من المناسب له أن يعترف بالخطأ، ويتوب عنه. وروح الله يبكت الإنسان على الخطأ الذى يرتكبه.

ومهما بلغ الإنسان، فهو خاطىء غُفرت خطاياه. فليس على الأرض قديس لا يخطىء. والغفران لا يعنى أن الإنسان لم يخطىء. فلو أن شخصاً سرق مالاً من غيره، ثم اعترف بالسرقة، فإن الله يغفر له. ثم هو يرد السرقة لصاحبها ويعترف له، والمسروق منه يغفر له. بعد كل هذا، ليس معنى ذلك أن السرقة لم تتم. فحادث السرقة واقع. والغفران يعنى أن الله صفح عنه. وكل ما يقدر هذا الإنسان أن يتباهى به أنه "خاطىء غُفرت خطيته".

الشعور بالخطأ أخف من الشعور بالذنب. فالشعور بالخطأ شعور يظهر ثم يختفى بسهولة مع الغفران. أما الشعور بالذنب فهو حالة، لا مجرد شعور. فالمذنب يعد مسئولاً عن ذنب ارتكبه. يحس فى أعماقه بالخجل والخزى لأنه فعل هذا.

أحس داود الملك بالذنب عندما ارتكب خطيته المعروفة. ويعبر المزمور الحادي والخمسين عن مرارة الذنب الذى أحس به فى أعماقه. والشعور بالذنب يدفع الإنسان للإحساس الدفين بمرارة الخزى لأنه ارتكب تصرفاً أحمق. والذى يشعر بالذنب لا يقدر أن يغفر لنفسه بسهولة. أحس داود بالقلب المنكسر أمام الله، وإحساسه باحتقاره لنفسه لدرجة أنه طلب من الله ألاّ يحتقره (مزمور ٥١:١٧). فالشعور بالذنب يرتبط بمشاعر عميقة فى

نفس الإنسان، وجروح أليمة لا تُشفى بسهولة. وتكون هذه المشاعر- فى المعتاد- مرتبطة بأن الخطأ أرتكب ضد الغير وأساء إليهم.

والشعور بالذنب يرتكز حول إحساس الإنسان بخطئه، ووقوفه أمام الله والناس ونفسه مسئولاً عما ارتكب، وأنه يستحق عقاب الله، أو على الأقل تأديب الله له. والشعور بالذنب إحساس متكرر مستمر بلوم النفس والرغبة فى عقابها. وهناك من يعاقبون أنفسهم بسبب خطئهم. وقد يصل اللوم والعقاب الذاتى إلى درجة مؤلمة للإنسان.

فإن كان خطأ الإنسان ضد آخر (أو آخرين)، فإن المشكلة تتفاقم بالنسبة له. فهل خسر احترامهم؟ وهل هم يحتقرونه بسبب هذا الخطأ؟ خاصة وإن كان نوع الخطأ مما يهين كرامة الإنسان.

ومشاعر الخجل التى ترتبط بالذنب أليمة جداً للإنسان. فليس أقسى على الإنسان من أن يشعر باحتقاره لذاته، أو احتقار الغير له. ينتج عادة عن هذا الشعور إحساس الإنسان بأن الله لم يغفر له، وأنه لا يقدر أن يغفر لنفسه. يضاف إلى ذلك، أن الناس -خاصة فى المجتمعات الدينية- يتباهون بتحقير الخطأ والمخطىء، والنظر إليه بنظرة كلها سخرية وإساءة وإقلال من قدره.

عندما أنكر بطرس المسيح أحس بالخجل الشديد فى أعماقه. ولعله لم يجرؤ أن يواجه المسيح بعد القيامة. ولا شك أنه شعر بالخجل من مواجهة التلاميذ بعد ذلك. ولعله أحس بالدفء عندما دعا التلاميذ أن يذهبوا للصيد، حتى جاءه المسيح وقابله وتحدث إليه وأعطاه مسئولية الرعاية والخدمة بعد ذلك.

وحالة الشعور بالذنب يرتبط بها الشعور بعدم الرضا عن النفس بكل ما فيها من آثار نفسية وروحية أليمة. ففى أعماق المزمور الحادى والخمسين تكمن مشاعر الخزى والمرارة للاستيلاء على زوجة من زوجها، وحرمانها منه.

وأحياناً يكون ثمة مغالاة فى الخطأ. فمن الناس من يظنون أنهم مخطئون وهم ليسوا كذلك. ومن الناس من يبرع فى اختلاق أنه أخطأ لكى يدين نفسه. وهناك من يبالغ فى تصرفات عادية ويفسرها على أنها خطايا، ثم يبكى عليها. فرثاء الذات يكون عند البعض رغبة وشهوة داخلية، لعلّه يكسب بها عطف الناس واهتمامهم.

ومن الناس من يقارن نفسه بغيره. ففلان تقى جداً، لكنه هو أقل تقوى منه. وكلما قارن نفسه بغيره ممن يظن أنهم قديسون، وجد نفسه أضعف منهم، فيوجه اللائمة إلى نفسه. فتستقر مشاعر الذنب فى أعماقه.

ولعله من الواضح أن الشعور بالذنب يضر الإنسان نفسه ويسىء إليه. فهو يحتقر نفسه، ويرثى لذاته، ويتألم بعمق. والواقع أن نعمة الله غنية ووفيرة، وهى تملأ الإنسان بالرضا والراحة النفسية والروحية.. وغفران الله قائم للجميع، ماداموا يشعرون بالاعتراف والتوبة. فتبقى المشكلة: قدرة الإنسان على أن يغفر لنفسه.

للإنسان قيمة غالية. وقيمته تتناسب مع ذاك الذى وضع نفسه من أجلها. وليس لأى شىء أن يقلل من قدر الإنسان وقيمته. ولا يجوز للإنسان أن يبذل نفسه بسبب خطئه.

تعاطف المسيح مع الزناة، كما تعاطف مع ضعفات الجسد. إلا أنه لم يتعاطف مع الكبرياء الروحية والرياء. أحس المسيح بأولئك الذين كاد

يقتلهم الخجل والخزى. ساندهم ودعاهم لحياة أفضل. لم يوبخ المسيح بطرس الذى أنكره. قدَّر المسيح الموقف الأليم الذى عاشه بطرس فى جوٍّ من الإرهاب الفكرى والجسدى الذى رسمه رؤساء الكهنة. ودعا المسيح بطرس لشفاء ذاته عندما قال له "ارع خرافى" (يوحنا ٢١:١٥-١٧).

كما أن عقاب الذات دليل على أن الإنسان يعيش تحت ناموس وشريعة. فإن كانت نعمة المسيح قد حلّت محل الناموس، فلا دينونة على الإنسان. فالذى يدين نفسه فيعاقبها يضع نفسه تحت حكم الناموس.

لذا، فإننا نحتاج أن نتعلم كيف نحب أنفسنا، ونغفر لها. ومهما أخطأنا. نحتاج أن ندرب أنفسنا لنصعد فوق المشكلة. فغفران الله قائم. وعلينا أن نبنى ذواتنا لنقوم ونعمل ونخدم.

الحزن على الخطأ يكون حزناً بمشيئة الله متى كان حزناً للتوبة (كورنثوس الثانية ٧:٩-١١). إلا أن هذا الحزن لا يستمر، بل يتحول إلى اجتهاد، وخلاص بلا ندامة، وتطلع لمستقبل مجيد.

(٣)

مفتاح الإيمان والنمو فى النعمة هو تغيير مناهج سلوك معينة ليكون الإنسان صالحاً أمام الله .

تهتم جماعات كثيرة بالدعوة الخلاصية للإيمان بالمسيح رباً ومخلصاً. وتضع كل جماعة نظماً وقواعد منهجية لمن يدخلون الإيمان لتنفيذها حرفياً. تستخدم هذه القواعد للتمييز بين "المؤمن" و "الخاطىء". وتعتبر شروطاً واضحة للدخول للإيمان.

نتيجة لذلك توجد علامات مظهرية تميز بين فئة "المؤمنين" وفئة "الأشرار". فالنظم والقواعد والقوانين المحددة تميز بين الفريقين فى المظهر واللغة. فيهتم فريق المؤمنين باستخدام ألفاظ معينة فى حديثهم مع الغير ليظهروا أنهم "مؤمنون" يتميزون عن غيرهم.

تشتد هذه المظاهر بوجود قوانين سلوكية للملابس والتصرفات اليومية الظاهرية. فهناك مجتمعات تحكم على ملابس النساء، ما هو إيمانى وما هو غير إيماني. ويتحدثون عن الحشمة بأنها الإقلال من الزينة. وتتنوع القوانين الشفهية -غير المكتوبة- فى المجتمعات للحديث عن تحريم الطرب أو الضحك أو غير ذلك.

وقد تمادت جماعات عديدة فى وضع قوانينها السلوكية، حتى لتحريم ما

هو حلال. ولعل الرسول بولس أراد أن يشرح ذلك عندما قال: "فى رياء أقوال كاذبة، موسومة ضمائرهم، مانعين عن الزواج، وآمرين أن يُمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتُتناول بالشكر من المؤمنين وعارفى الحق" (تيموثاوس الأولى ٤: ٢و٣).

هذا إلى جانب قوانين أخرى إيجابية توضع أساساً لتصف المؤمنين، ومنها المواظبة على الصلاة، وقراءة الكلمة المقدسة، والمواظبة على حضور الاجتماعات. وهناك نظم للصوم، وتكريس العشور، إلى غير ذلك من القوانين التى تضعها الجماعات المختلفة.

والاتجاه لوضع "قوانين للسلوك الروحى" اتجاه سائد فى عديد من جماعات المؤمنين حول العالم. فمن السهل وضع قوانين تعبر عن مواصفات الناس السلوكية، وتميز بين المؤمنين وغير المؤمنين. والناس يجدون سهولة فى ذلك. فهم مؤمنون إن فعلوا هذا ولم يفعلوا ذاك. وهم مخطئون لمخالفة قوانين سلوك الإيمان الروحى المعترف بها من الجماعة.

بعض هذه القوانين مبادىء عامة: لا تقتل، لا تسرق، لا تزن. وهى معروفة وواضحة وسهلة. وبعضها مأخوذ من حضارة المجتمع وثقافته: كملابس النساء، وتحريم أنواع من الأكل، أو غير ذلك. وهذه القوانين، لأنها ترتبط بحضارة المجتمع والعرف والبيئة، فهى تختلف من مجتمع إلى مجتمع. وكذلك ما نقبله أو نرفضه من الترف والمتعة. أما محاولة تحريم الصواب فهو صورة مظهرية لزيادة التقوى والورع والتقشف.

كانت هذه هى مشكلة الفريسية فى عصر المسيح. فالفريسيون، كان لهم قوانين شفهية عما هو صواب وخطأ. وكثير من هذه القوانين يرتبط بنظم

المجتمع وحضارته وثقافته وظروفه، وجزء آخر يرتبط بالمعايير العامة للسلوك البشرى. وقد سار الناس فى موكبهم. فتحويل الإيمان إلى قوانين يجعل الحياة سهلة. ويمكن للناس أن يظهروا مؤمنين فى ضوء هذه القوانين المظهرية.

وقد ظهر كثيرون من الناس -فى عصر المسيح، وفى عصرنا اليوم- يقومون بدور الإفتاء: فهذا حلال، وذاك حرام. ومن خلال ذلك يدينون الغير حسب مواصفات السلوك المظهرى لتنفيذ القوانين المفروضة.

حدثنا السيد المسيح عن فريسى وعشار دخلا الهيكل ليصليا (لوقا ١٨: ١-١٤). الأول تحدث عن نفسه أنه ليس مثل باقى الناس، وأنه يطبق القوانين الحرفية المظهرية للدين: الصوم، ودفع العشور، إلى غير ذلك.. أما العشار فقد اعترف بأنه خاطىء وطلب التوبة، وقال عنه المسيح إنه عاد إلى بيته مبرراً، بينما لم يتبرر الفريسى.

وتحدث المسيح فى الموعظة على الجبل عمن يصلّون أو يصومون أو يتصدقون لكى يظهروا للناس. هؤلاء يطبقون القوانين الرسمية التى تجعلهم يظهرون أبراراً أمام الناس. ولم يكن المسيح يرضى بتطبيق قوانين مظهرية. وقد لخص المسيح نظريته فى قوله: "ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم تنقون خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة. أيها الفريسى الأعمى نق أولاً داخل الكأس والصحفة لكى يكون خارجها أيضاً نقياً". (متى ٢٣: ٢٥ و٢٦).

وقد واصل السيد المسيح أحاديثه عن القتل والسرقة، فالمضمون ليس ممارسة قتل الجسد، فكثير من تصرفات الإنسان قد تقتل الآخر معنوياً.

فالاتجاه الرئيسى لتعليم السيد المسيح كان يرتبط بالمضمون أكثر من المظهر، وبالجوهر أكثر من الممارسة السطحية.

هاجم المجتمع اليهودى المسيح لأنه لم يمارس فريضة غسل الأيدى قبل الأكل. وقد كانت هذه ممارسة دينية مهمة. بل كان واضحاً أن المسيح وتلاميذه لم يصوموا صيامات اليهود الرسمية. ووجهوا إليهم اللوم بسبب ذلك.

هناك مبادىء عامة يقرها الجميع دون منازعة: فالسرقة والقتل والزنى أشياء مرفوضة، فهى تسىء للغير، وتعبِّر عن استغلال الغير، أو الإساءة لهم. وهناك نظم وقواعد ترتبط بالطعام والملبس والترفيه يلزم فيها التنوع والتعددية بحسب كل شخص واختياره، فى ضوء المجتمع الذى يعيش فيه، والنظام الذى يختاره.

مشكلة وضع "تقنين" للإيمان يعطى فرصة للرياء بكل مظاهره. فمن السهل أن يمارس الإنسان مظاهر الإيمان المطلوبة منه قانوناً، ويخفى وراءها الكذب والنفاق وكثيراً من المفاسد. تحدث السيد المسيح عن ذاك الذى أراد أن يحرم ورثته من ثروته، فقال: "قربان هو الذى تنتفع به منى". فذاك حوَّل الكراهية إلى مظهر دينى. قدم تركته قرباناً لله، والواقع أنه أراد أن ينتقم من ورثته الذين يكرههم.

يضاف إلى ذلك أن هناك خطايا تظهر للناس، وخطايا أخرى أسوأ منها لا تظهر للناس، أو لا يمكن الحكم عليها بقانون. فالكبرياء الروحية التى ظهرت فى الفريسى الذى ميَّز نفسه عن العشار خطيرة جداً. ولكن لا يوجد قانون يقدر أن يحكم عليها.

وأنت تشهد أن المجتمعات الدينية مليئة بالإدانة والحكم على الغير. فهذا شرير وخاطيء، وذاك مؤمن. هذا كافر وذاك لا يستحق أن يكون ضمن شعب الله. نحن نشهد هذا فى كل المجتمعات المتدينة فى كل الديانات. ونشهده أيضاً فى المجتمع الكنسى. ونستمع فى المجتمع الكنسى إلى محاكمات: فهذا أخطأ، يُعاقب كنسياً، وتدينه الجماعة. هل سمعتم عن شخص حوكم وفُصل من الكنيسة لأنه فتح دكانه يوم الأحد؟ وهل سمعتم أن شخصاً هددته كنيسته بالفصل لأنه اشترى جهاز تليفزيون فى منزله؟ هذه المجتمعات أنشأت قوانين لها، تحكم بها على الغير. حرمت الناس من تعددية الفكر. وقد نسى الحاكمون أنهم بكبريائهم الروحية هم أشر ممن يحكمون عليهم.

لسنا نشجع هذا أو ذاك، ولسنا نمنع هذا أو ذاك. لكننا نفتح مجال الفكر، ونسمح للتعددية والتنوع فى الآراء والأفكار. فقد هال المسيح الأحكام والإدانة التى عاشها المجتمع الفريسى، ونادى فيهم "لا تدينوا، لكى لا تدانوا".

بل تحولت فكرة القوانين إلى حرفية فهم الإيمان. فيقول شخص: كيف يعاملنى الله، لو أننى أخطأت ثم مت؟ هل أذهب إلى الجحيم؟ فهذا إنسان يفهم الله على أنه يحاسب على كل تصرف بمفرده. والواقع أن الله يرى الإنسان ككل، ولا يحاسب الإنسان على كل عمل وحده. يجتاز كل إنسان فترات ضعف وفترات قوة. فالإنسان إنسان.

قال الرسول بولس: "فإنكم إنما دعيتم للحرية أيها الإخوة، غير أنه لا تصيِّروا الحرية فرصة للجسد، بل بالمحبة اخدموا بعضكم بعضاً" (غلاطية

١٣:٥). لقد حررنا المسيح من الناموس، فلماذا تفرض جماعة ما قوانين حرفية لطاعتها، ثم تستخدمها لتحكم على الغير. ليس معنى هذا أن تتحول الحرية إلى فوضى. فنحن مدعوون أن نميز الأمور المتخالفة (فيلبى ١ : ١٠)، وأن نضع الحق والعدل فوق الباطل، وأن نؤسس مجتمع المحبة، الذى تسود فيه المحبة على القانون. وعلاقتنا بالله لا تحكمها قوانين معينة، بل رغبة الإنسان المحب فى طاعة السيد والخضوع له. ولا يميز بين شخص وشخص أساليب مظهرية، بل الإيمان الحق من أعماق قلب الإنسان.

المشكلة هنا أننا تحررنا من ناموس موسى، ولكننا وضعنا لأنفسنا ناموساً جديداً نخضع له. فالناموس الجديد هو شريعة سلوكية يُحاسب الإنسان عليها من الجماعة التى يعيش معها. وبذلك تكون هناك ردّة للمؤمنين. فمع الناموس انحراف للخطية، وللأهواء (رومية ٥ : ٢٠، ٧:٥ و١٠ و١١). ومع الناموس ينتشر الرياء. وتمتد الفريسية التى حاربها المسيح، ويزيد الشر، وتقل المحبة.

إن الإيمان بالمسيح مؤسس على عمله الخلاصى، وبناء على هذا الإيمان يحصل الإنسان على حرية مجد أولاد الله. فالسلوك ليس هو مجرد العمل المعين أو الانسحاب من شىء ما، بل هو الشعور والإحساس والفكر. والنمو والنضوج لا يعنى مجرد شطب تصرف ما أو وقف سلوك ما. فالنضوج نمو فى الفكر والعمل. والروحانية ليست مجرد شطب أخطاء سلوكية، لكنها بناء شخصية متكاملة لذاك الذى أُقيم من بين الأموات (رومية ٧:٤).

وبناء الشخصية يتم كل يوم فى الفكر والوعى والنضوج، ويتحقق من خلال الخبرة مع المسيح، ومع جماعة الرب، ومع المسئوليات فى المجتمع.

(٤)

يكفى أن يكون للإنسان ضمير صالح ليعيش أميناً لله .

ما هو الضمير؟ هل هو صوت الله فى الإنسان؟ وهل هو حكم سليم؟ ومتى ظهرت كلمة ضمير؟

تستخدم كلمة ضمير استخدامات عديدة. فعندما يعطف شخص على فقير نقول إن عنده ضمير، وعندما يسيء شخص لآخر ويظلمه نقول ليس عنده ضمير. فهل هذه تعبيرات صحيحة؟!

ظهرت كلمة ضمير فى كتابات "ديموكريتس" (٤٦٠-٣٦١ ق.م) باعتبارها الوعى ضد الخطأ، ثم ظهرت فى كتابات الفيلسوف أبيقور (٣٤٢-٢٧٠ ق.م) بنفس المعنى. ثم استخدمت كلمة ضمير بعد ذلك على أنها ممارسة عقلية. الفيلسوف كانت Kant اعتبر أن الضمير هو الإحساس بالواجب، وهي قيمة أساسية للذات الإنسانية، كما اعتبر أن الضمير هو عملية متفرِّدة لعقل الإنسان. وأضاف ديكارت وسبينوزا أن الضمير يعاقب الإنسان عندما يخطيء.

لم ترد كلمة ضمير فى العهد القديم، لكن كلمة "فكر" و "قلب" أستخدمتا أحياناً لتعطى نفس المضمون. جاء فى سفر دانيال أن الفتيان

الأربعة "أعطاهم الله معرفةً وعقلاً" (دانيال ١:١٧). وطلب سليمان من الله أن يعطيه "حكمة ومعرفةً" (أخبار الأيام الثانى ١:١٠-١٢). ويقول كاتب الجامعة: "صنع الكل حسناً فى وقته، وأيضاً، جعل الأبدية فى قلوبهم" (جامعة ٣:١١). ويتحدث سفر صموئيل الأول (٢٤:٥) عن داود "أن قلب داود ضربه على قطعه طرف جُبة شاول".

ويتحدث كاتب سفر الأمثال قائلاً : "إن مخافة الرب رأس المعرفة" (أمثال ١:٧). و "بدء الحكمة مخافة الرب، ومعرفة القدوس فهم" (٩:١٠).

لم ترد كلمة ضمير فى الأناجيل، ولكن وردت كلمات تحمل المضمون: قلب، عقل، النور الداخلى، العقلانية. يحدثنا مرقس الإنجيلى "فنظر حوله إليهم بغضب، حزيناً على غلاظة قلوبهم" (مرقس ٣:٥). وقال المسيح: "إن موسى، من أجل قساوة قلوبكم، أذن لكم أن تطلقوا نساءكم" (متى ١٩:٨). وقال أيضاً: "وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً، فإن كان النور الذى فيك ظلاماً فالظلام كم يكون" (متى ٦:٢٣).

ذكر يوحنا الإنجيلى من أقوال السيد المسيح: "لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور، ولا يأتى إلى النور لئلا توبخ أعماله" (يوحنا ٣:٢٠). كما ذكر لوقا الإنجيلى من أقوال المسيح: "لماذا لا تحكمون بالحق من قِبَل نفوسكم" (لوقا ١٢:٥٧).

فالنور الداخلى "النور الذى فيك" يعبر عن محتوى الضمير، والنور الذى يكشف الأعمال السيئة ويوبخها يحتوى معنى الضمير. أما القول "تحكمون بالحق" فيحتوى المضمون العقلانى فى سلوك الإنسان، فللضمير هنا مهمة عقلانية.

وقد استخدم الرسول بولس، وكذلك الرسول يوحنا كلمة ضمير. كما شملت الاستخدامات إلى جانب كلمة "ضمير" كلمة "قلب": لتعطى ذات المضمون. قال يوحنا الرسول "لأنه إن لامتنا قلوبنا، فالله أعظم من قلوبنا، ويعلم كل شيء" (يوحنا الأولى ٣: ٢٠). وقال بولس فى رسالته إلى تيطس: "كل شيء طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً، بل قد تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم" (تيموثاوس ١: ١٥) فالذهن هنا يعطى المضمون الفكرى للضمير، وقال بولس فى رسالته إلى أفسس (٤: ١٨): "إذ هم مظلمو الفكر ومتجنبون عن حياة الله، بسبب الجهل الذى فيهم، بسبب غلاظة قلوبهم". ونحن نرى فى هذه الآية استخدام "الفكر" و "القلب" للتعبير عن مضمون الضمير.

تحدث الرسل عن الضمير الصالح والطاهر:

"فتفرس بولس فى المجمع، وقال:

أيها الرجل الإخوة، إننى بكل ضمير صالح

قد عشت لله إلى هذا اليوم"

(أعمال الرسل ٢٣: ١)

"ولك إيمان وضمير صالح، الذى إذ رفضه

قوم انكسرت بهم السفينة من جهة الإيمان"

(تيموثاوس الأولى ١: ١٩)

"ولكم ضمير صالح، لكى يكون الذين يشتمون
سيرتكم الصالحة فى المسيح يخزون فيما
يفترون عليكم كفاعلى شر"
(بطرس الأولى ٣:١٦)

"الذى مثاله يخلصنا نحن الآن، أى المعمودية،
لإزالة وسخ الجسد. بل سؤال ضمير صالح عن
الله بقيامة يسوع المسيح"
(بطرس الأولى ٣:٢١)

"ولهم سر الإيمان بضمير طاهر"
(تيموثاوس الأولى ٣:٩)

وتحدث الرسول بولس عن الضمير القوى والضمير الضعيف فى قوله: "ولكن ليس العلم فى الجميع. بل أناس بالضمير نحو الوثن إلى الآن يأكلون كأنه مما ذُبح لوثن. فضميرهم إذ هو ضعيف يتنجس" (كورنثوس الأولى ٨:٧). ويشير الرسول هنا إلى الأكل من الذبائح التى ذُبحت طبقاً للشريعة الوثنية فى عصرهم، فالضمير الضعيف هنا يكون ضعيفاً بسبب عدم المعرفة أو ضعف الإرادة، أو الارتباط بعادة قديمة تعودوها قبل دخولهم إلى المسيحية.

"فى الأيام الأخيرة، يرتد قوم عن الإيمان،
تابعين أرواحاً مضلة، وتعاليم شياطين،
فى رياء أقوال كاذبة، موسومة ضمائرهم"
(تيموثاوس الأولى ٤: ١و٢)

"فكم بالحرى يكون دم المسيح، الذى بروح
أزلى قدم نفسه بلا عيب، يطهر ضمائركم
من أعمال ميتة لتخدموا الله الحى"
(عبرانيين ٩: ١٤)

"كل شىء طاهر للطاهرين، وأما للنجسين
وغير المؤمنين فليس شىء طاهراً بل قد
تنجس ذهنهم أيضاً وضميرهم".
(تيطس ١: ١٥)

من هنا نرى أن الضمير يمكن أن يكون فاسداً أو نجساً. فالضمير لا يمكن أن يكون معصوماً. ولا يصح أن نعتبره صوت الله فى الإنسان. وبذلك لا يمكن أن يكون مقياساً ثابتاً للحكم على المواقف. لا يوجد ضمير ميت. يوجد ضمير فاسد. فلا يوجد شخص لا ضمير له. كل إنسان عنده ضمير.

فما هو الضمير؟

الضمير هو عملية عقلية (فكرية وعاطفية) تُستمد من دوافع الإنسان وقيمه ومعرفته وخبراته وبيئته: تعطى الإنسان وعياً بما يلزم أن يكونه أو يعمله.

وبتعبير آخر، فالضمير هو القيم العليا التى يتخذها الإنسان لنفسه، مأخوذة من علمه ودراسته ومعرفته، أو من خبرته، أو من تراث مجتمعه وحضارته وبيئته، إلى جانب دوافعه الداخلية وأهدافه. فعلى سبيل المثال: الثأر فى بيئة ما يعتبر قيمة عليا. والملابس -خاصة للنساء- لها قيمة معينة فى بيئات مختلفة.

"تأتى ساعة، فيها يظن كل من يقتلكم

أنه يقدم خدمة لله"

(يوحنا ١٦:٢)

"ولكنى أرى ناموساً آخر فى أعضائى يحارب

ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطية

الكائن فى أعضائى"

(رومية ٧:٢٣)

تتأثر العملية العقلية بذكاء الإنسان وبقدرته على الفهم وبخبراته، كما تتأثر ببيئته. فلو تغيرت البيئة كان من الممكن للإنسان أن يغيِّر قيمه العليا. كما أن خبرات الإنسان تعبر عن قيمه العليا.

وقد أعطى الإيمان المسيحى قيماً تعاون الإنسان أن يتخذها لنفسه قيماً عليا.

"فكم بالحرى يكون دم المسيح، الذى بروح
أزلى قدم نفسه، بلا عيب، يطهر ضمائركم
من أعمال ميتة، لتخدموا الله الحى"
(عبرانيين ٩:١٤)

"أنا (بولس) الذى كنت قبلاً مجدفاً، ومُضطهداً،
ومفترياً، ولكننى رُحمت
لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان"
(تيموثاوس الأولى ١:١٣)

"تمسَّك بصورة الكلام الصحيح الذى سمعته
منى فى الإيمان والمحبة التى فى المسيح يسوع"
(تيموثاوس الثانية ١:١٣)

"الذى هو رمز للوقت الحاضر، الذى فيه
تُقدم قرابين وذبائح، لا يمكن من جهة
الضمير أن تكمل الذى يخدم"
(عبرانيين ٩:٩)

"أقول الصدق فى المسيح، لا أكذب،

وضميرى شاهد لى بالروح القدس"

(رومية ٩:١)

"وأما غاية الوصية فهى المحبة، من قلب

طاهر، وضمير صالح، وإيمان بلا رياء"

(تيموثاوس الأولى ٥:١)

"صلوا لأجلنا، لأننا نثق أن لنا ضميراً

صالحاً، راغبين أن نتصرف حسناً فى كل شيء"

(عبرانيين ١٨:١٣)

تحدث الرسول بولس عن ماضيه، عندما كان يضطهد كنيسة المسيح، أنه كان مجدفاً ومفترياً. ثم يقول: "رُحمت، لأنى فعلت بجهل فى عدم إيمان" (تيموثاوس الأولى ١٣:١). ومن هنا نرى أن ضمير الرسول بولس قبل الإيمان قاده لسلوك معين، وبعد الإيمان قاده لسلوك مغاير.

من هنا نرى أن ضمير الإنسان هو القيم العليا التى يتمسك بها الإنسان. فقد كان الرسول بولس مخلصاً عندما اضطهد الكنيسة، فى حدود معرفته فى ذلك الوقت. لكنه فعل ذلك بجهل وعدم معرفة.

ضمير الإنسان هو القيم العليا التى يتخذها الإنسان لنفسه، مأخوذة من معرفته وعلمه، ومن الظروف المحيطة، ومن الخبرة الشخصية، ومن رغباته

ودوافعه. تحدث أحد القادة أنه كان يوماً ما يحرِّم دخول شاطىء البحر، ويعتبر أن ملابس البحر (المايوهات) شر جسيم. ولكنه فى مرحلة متأخرة من حياته أحس بأنه كان مخطئاً، وأن دخول البحر، والسباحة رياضة جميلة.

وفى عصر الرسول بولس كانت هناك مشكلة الأكل من اللحوم التى تذبح للأصنام فقال: "ليس العلم فى الجميع، بل أناس بالضمير نحو الوثن إلى الآن يأكلون كأنه مما ذُبح لوثن. فضميرهم إذ هو ضعيف يتنجس" (كورنثوس الأولى ٨:٧). ولعله من الواضح أن الأكل مما ذبح للأوثان كان مقبولاً من البعض. فالرسول بولس والرسول بطرس أكلا منه. لكن البعض كانوا يتأثرون ضميرياً عندما يأكلون منه.

وقد ترى إنساناً، فى بيئة يؤمن بأن الثأر كرامة وشرف، فهو يأخذ الثأر وضميره مستريح لأنه يحقق الأهداف العليا التى أخذها لنفسه من بيئته ومجتمعه. وهناك المتطرفون الذين يرتكبون جرائم القتل ضد أبرياء فى أديان أخرى، وضميرهم مستريح، لأنهم يحققون الأهداف السامية التى يعتقدون أن دينهم يدعو إليها.

الضمير هو القيم العليا التى يتخذها الإنسان لنفسه، ويريد تحقيقها. وقد يحققها أو يفشل فى ذلك. والقيم العليا يتخذها الإنسان من واقعه. فالضمير لا يمكن أن يكون صوت الله فى الإنسان. والضمير فى حقيقته جزء من وظيفة العقل البشرى.

لكن المسيحى، يأخذ قِيَمه من روح الله. ويقارن بين قيم المجتمع والبيئة ويحللها فى ضوء فهمه لكلمة الله. وكلما نما فى المعرفة، وزاد فى الخبرة ارتفعت وسمت القيم التى يتخذها لنفسه. قال الرسول: "لذلك أنا أيضاً

أدرِّب نفسى، ليكون لى ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس" (أعمال الرسل ٢٤:١٦). وقال كاتب الرسالة إلى العبرانيين: "فكم بالحرى يكون دم المسيح، الذى بروح أزلى قدم نفسه بلا عيب، يطّهر ضمائركم من أعمال ميتة، لتخدموا الله الحى" (عبرانيين ٩:١٤). وقال بولس: "إننى بكل ضمير صالح قد عشت لله إلى هذا اليوم" (أعمال الرسل ٢٣:١). وقال لتيموثاوس فى رسالته الأولى إليه "ولك إيمان وضمير صالح، الذى إذ رفضه قوم، انكسرت بهم السفينة من جهة الإيمان" (تيموثاوس الأولى ١:١٩).

والقيم الأساسية التى يبنى عليها الإنسان منظومة قيمه العليا هى قيم الحق والعدل والمحبة. فعلى أساس هذه الثلاثة يمكن انضباط السلوك، والارتقاء بالخلق.

عندما يضع الإنسان قيمه العليا، يقوم بدور الرقيب على المواقف التى يواجهها، فيختار الصواب الذى يتفق مع قيمه. ولذا كان على الإنسان أن يختار دائماً قِيَمه العليا وأن يكون على استعداد لتطويرها وتدريب نفسه عليها من وقت إلى وقت مع زيادة معرفته وعلمه وإيمانه.

(٥)

القيمة الأولى التى تحكم سلوكى هى ألا يكون هذا السلوك معثرة للبسطاء.

ارتبط حديث الرسول بولس عن الإعثار فى قضية الأكل مما ذبح للأصنام. ففكرة ذبح الحيوانات على الشريعة الدينية فكرة قديمة. أخذتها اليهودية بعد ذلك. ولما كان عدد كبير من الوثنيين قد دخل إلى المسيحية، فقد كانت مشكلة الأكل من اللحوم التى ذُبحت للآلهة الأصنام مشكلة رئيسية. وقد حلل الرسول بولس هذه الظاهرة فى قوله: "ولكن ليس العلم فى الجميع. بل أناس بالضمير نحو الوثن إلى الآن يأكلون كأنه مما ذبح لوثن، فضميرهم إذ هو ضعيف يتنجس" (كورنثوس الأولى ٨:٧). والفكرة هنا، أن الإنسان الذى تعوَّد أن يأكل من اللحوم المذبوحة حسب الشرائع الوثنية، وكان يعتبر أنه وهو يأكل منها يتعبد للوثن، فهو اليوم مسيحى واقع تحت تجربة. فلو أكل من هذا اللحم، قد يشعر أنه يتعبد للإله الوثنى الذى عاش كل عمره يتعبد له.

لكن الرسول بولس يرى أن الإله الوثنى غير موجود. فلا إله إلا الإله الواحد الوحيد. وهو يحس براحة وهو يأكل من هذا اللحم ولا يتأثر. فضميره قوى. وعلمه ومعرفته واسعة. وقد أحس الرسول أنه -بسبب أكل اللحم- قد

يعود مسيحى حديث -ضعيف الضمير- إلى عبادته الوثنية الأولى. وهنا يقول بولس أنه مستعد ألاّ يأكل اللحم قط، حتى لا يعثر بسببه الشخص الضعيف الذى مات المسيح لأجله.

يأخذ بعض الناس هذه المشكلة ويطبقونها على كل شيء ويضعون الشريعة الأولى للممارسات السلوكية "عدم إعثار الغير". فهناك أشخاص لا يتحدثون عن مشاهدة الشاشة الصغيرة لئلا يعثر البعض. وآخرون يتحدثون عن ملابس النساء، ما هو حشمة، وما هو غير حشمة، لكى لا يعثر البعض. وهكذا....

وهذا يدفعنا أن نرى كيف واجه الرسول بولس المشكلة. فالقضية بالنسبة للرسول بولس قضية ضخمة وخطيرة جداً. فموائد الأكل عند الوثنيين عبادة. وتداخل العبادة الوثنية مع تناول الطعام أمر خطير جداً. ولم تدخل قضية الإعثار فى موضوعات تافهة وصغيرة.

من جانب آخر تناول بولس من طعام اللحم الذى ذُبح للأصنام. وكذلك الرسول بطرس. وفى مناسبة جاء بعض المحافظين من أورشليم فامتنع بطرس عن الأكل مما ذبح للأصنام أمامهم. وهنا وبّخه الرسول بولس بشدة. فكيف تأكل منها فى موقف معين، وترفض الأكل فى موقف آخر؟ ولو راجعنا الحقيقة، فإن بطرس الذى رفض الأكل لم يكن خوف إعثارهم، بل خوف انتقادهم له. وكان يلزم أن يكون شجاعاً ويأكل أمامهم. ليكن للإنسان ضمير واحد، ولا يجوز له أن يكذب (راجع غلاطية ٢: ١١-٢١).

وهناك مواقف نحتاج فيها لتشجيع الرافضين أن يأكلوا وأن يتقووا، وأنهم لا يتراجعون. فالضعفاء فى مرات عديدة يحتاجون لمن يعاونهم

ليتقووا. فليس فى مصلحة أحد أن يبقى ضعيفاً. يحتاج الضعيف أن يتعلم وأن يتقوى وأن يثبت.

يقول الرسول بولس: "لذلك أنا أدرِّب نفسى ليكون لى ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس" (أعمال الرسل ٢٤:١٦). فالضمير تحكمه علاقة الإنسان بربه أولاً وبالناس ثانياً. فلا يجوز الكذب ولا الخداع. بل يلزم قول الحق والأمانة.

ويقول الرسول بولس فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: "لأنه لماذا يحكم فى حريتى من ضمير آخر" (كورنثوس الأولى ١٠:٢٩). ولا يجوز أن يدين إنسان نفسه فيما يستحسنه. لذا كانت قضية الإعثار ترتبط بتقاليد دينية قديمة يحدث عنها رِدَّة فى الإيمان. ولذا فقضية الخوف من إعثار الغير موضوع لا يجوز إعطاؤه مكانة أكبر، ولا تجوز المغالاة فيه دون داعٍ.

(٦)
كل ما أحتاج إليه أن أسلم أمرى لإلهى، وهو يتصرف بحكمته. وما دام هو معى، فلا حاجة لى لأحد.

يقول لك شخص: أنا سلمت كل أمرى لله، وألقيت كل مشكلاتى عليه، وهو سيحلها. وهم يعتقدون أن الحل الوحيد هو عند الله. وأن بيد الله كل مقاليد الأمور. فبالتالى لا يوجد للإنسان دور سوى الاعتماد الكامل الشامل على الله.

تمتد الفكرة عند البعض بأن "القدر" يتحكم فى الخليقة كلها وفى البشر. فالقدرية عقيدة أصيلة عند الكثيرين. ويعتقدون أن القدر يحكم الخليقة. فلو داست سيارة شخصاً وقتلته، معنى ذلك أن الله قصد ذلك. وأنه مقدّر له أن يموت تحت سيارة. ولو كان فى أى مكان، فلابد له أن يأتى فى ذلك الوقت المعين، إلى ذلك المكان المعين، ثم تدوسه السيارة ويموت.

ومن هنا نشأت التواكلية. فالذى يتواكل على الله، دون أن يعمل شيئاً يعتقد أن الله سيحقق إرادته: خيراً كانت أو شراً. فظهر الكسل والتكاسل نتيجة لذلك.

ارتبط هذا بالصلاة. فالدعوة للصلاة دون عمل دعوة البعض. فهم يصلّون وينتظرون الله لكى يعمل ويحقق إرادته فى هذا العالم، فى الطبيعة.

والواقع يختلف عن ذلك. فإن مفهومنا اللاهوتى هو أن الله لا يصنع الشر. فالله صالح. وإرادته صالحة، ومرضية وكاملة. الشر يحدث فى العالم رغم أن إرادة الله صالحة، فليس كل ما يحدث فى العالم هو من إرادة الله. الصالح من إرادته، أما الشر فهو من صنع الأشرار. والله لا يرضى بالشر الذى يحدث فى العالم.

لو مات شخص تحت عجلات سيارة فى حادث أليم، فهذه ليست إرادة الله. لم يرد الله أن هذا الشخص يموت تحت عجلات السيارة فى ذلك الوقت. السائق أخطأ -وربما يشاركه فى الخطأ- الشخص الذى لقى مصرعه. والموت نتيجة خطأ السائق. ولو لم يخطىء السائق ما مات هذا الشخص.

ليس مقدّراً لمن مات أن يموت فى هذا الوقت بهذه الطريقة، فلا يوجد "قدر" ولا "حظ". هناك خير وشر. وهناك شر من الإنسان إلى جانب شرور الطبيعة. قد يحدث زلزال يحطم المساكن ويشرد الآلاف من البشر. وضع الله نظم الطبيعة. وهناك شرور الطبيعة التى تحدث نتيجة هذه النظم، ومن خلال نظم الطبيعة تشرق الشمس، وينير القمر، وينزل المطر، إلى غير ذلك. فهناك خير فى النظم، ويوجد فيها أيضاً شر.

والله يدفعنا دائماً أن نعمل معه. فنحن نعمل فى كافة المجالات، والله يعمل معنا. إنه يفكر معنا ويعانى معنا عندما نعانى، ويجاهد معنا عندما نجاهد. الله يشاركنا حياتنا وعملنا. وفى هذا روعة الإيمان المسيحى.

عندما نعمل فنحن نحمل المسئولية. فلدينا القدرة على التفكير والعمل. وقد أعطانا الله العقل المفكر والقدرة التى تحقق الأهداف.

ليس كل الناس أشرار. وليس كل الناس يضمرون السوء للغير، فالعالم

ملىء بخير وفير. وهناك أناس كرماء وشرفاء وأخلاقهم عالية. هناك أناس يخدمون بحب، ويتعاونون بكرامة.

ليس معنى ذلك أن علاقتنا بالله ليست كافية. ففى الله كفاية عظيمة لكن الله يتعامل مع البشر من خلال البشر. فالله يستخدم كل المصادر لصالح الإنسان وتقدمه.

يشاركنا الله مواقفنا من فرح وألم، ويعيشها معنا. والناس كذلك. ونحن نعمل مع الله، ونعمل مع الناس. ومن خلال تبادل الخبرات، والمشاركة العملية نحن نبنى الكثير. نحن نحتاج للاستعانة بالغير فى حكمتهم أو العمل المشترك.

لا يجوز لنا أن نعمم المشكلات. فإن كان هناك أناس سيئون، فليس الكل كذلك. وإن كان قد لحق بنا ضرر من البعض فليس الكل كذلك. وروعة الحياة أن ننمو معاً كجماعة. فالبناء المشترك يكون قوياً. ما أروع الزوجين اللذين يعملان معاً، ويبنيان حياتهما معاً مع الأيام. وما أروع جماعة تعمل معاً، فتنمو وتتقدم معاً....

لكى تكون لنا الحياة المسئولة والملتزمة، لنخلع أساليب التواكل والقدرية، فالمسيحية إيمان مسئول وملتزم.

(٧)

أنا أعلم أن الله يستجيب الصلاة متى كانت مخلصة وبإلحاح مستمر.

يقول لك شخص: صلِّ، فلابد أن يستجيب الله الصلاة. وإن لم يستجب فذلك يكون لضعف إيمانك. فإن كنت قوياً فى الإيمان فصلاتك لابد وأن تستجاب.

مرض أحد المؤمنين وذهب للمستشفى للعلاج. اتفق ثلاثة من الشباب أن يذهبوا إلى المستشفى، وأن يقيموا الصلاة فى الصالون الملحق بغرفة المريض.دخل واحد من الشباب للمريض، وقال له: ثق. سوف تُشفى لقد وعدنا الرب بأنك ستُشفى. ليكن لك إيمان بذلك.

ابتسم المريض وابتسمت زوجته. فكلاهما يعلم أن مرض السرطان قد انتشر فى جسم المريض بصورة شاملة يستحيل معها الشفاء. ولم يعرف لا المريض ولا زوجته كيفية التفاهم مع هذه المجموعة. بالإضافة إلى أن استمرارهم فى الصلاة فى الغرفة المجاورة لغرفة المريض شىء مقلق وغير مريح. الذين يصلون مخلَصون ولكن بجهل وعدم معرفة. فهل من طريقة لائقة وغير جارحة لهم للتخلص من إزعاجهم؟!

ولعله من الجهل الفاضح أن يقول شخص إن الله وعدنى! فكيف وعده؟

وكيف يضع أقوالاً على فم الله؟ ومن أعطاه هذه السلطة أن يتحدث باسم الله؟ هذا نموذج لكثيرين يتصرفون فى جهل وعدم معرفة، وبالتالى فهم يسيئون إلى الله وإلى الإيمان.

قالت فتاة إن الله كلّمها فى أذنها وهى تصلّى، وقد سمعت هى صوت الله. وقد قال لها إن هناك شخصاً سيتزوجها، وسيتقدم لها. ومضت سنوات ولم يتقدم هذا الشخص.

إننا نحتاج أن نتواضع. فليس لنا أن نقف فى مكان الله. ولا يجوز لنا أن نحدِّد أحلامنا وآمالنا ونقول إن الله سيحققها وقد وعدنا بذلك. ولا يجوز لنا أن ندّعى بقوة الإيمان، أو نتهم آخر بضعف الإيمان. فهذا ليس فى سلطاننا. عدم الشفاء ليس دائماً مرتبطاً بضعف الإيمان. والصلاة قوية الألفاظ وقوية العواطف ليست دائماً مرتبطة بقوة الإيمان.

صلّى المسيح طالباً أن يعبر الله عنه الكأس، ولم يتحقق له هذا المطلب. وصلّى الرسول بولس طالباً أن يشفى مما دعاه شوكة الجسد، ولم يُشف. وقد كان المسيح قوياً وهو ابن الله الظاهر فى الجسد كما كان بولس الرسول عظيم الإيمان.

يتحدث كثيرون عن الإلحاح فى الصلاة. ويشعرون أن الإلحاح فى الصلاة ضرورى لاستجابة الصلاة. ويعقد البعض جلسات صلاة طويلة جداً بالساعات.

لن نؤثر على الله بصلوات طويلة. فالله يعلم ما نصلى لأجله قبل أن نطلب منه ذلك. وعندما نتعامل مع الله، فالله يفهم الطلب ويفهم الصلاة ويدرك ما نريد.

ليس الله إنساناً نؤثر عليه بتكرار الطلب والإلحاح. تحدث المسيح عن المرأة التى كررت طلبها لقاضى الظلم، فاستجاب لها من أجل لجاجتها. ولكن الله ليس ظالماً. ولا يجوز أن نتهمه بالظلم. والله ليس بشراً. فلا يجوز أن نعامله كإنسان. فالإلحاح ليس ضرورة. يكفى أن نعبر عن رغباتنا بإخلاص وصدق. والله يعرف ما يصلح لنا، أكثر من إدراكنا.

ينبغى أن نصلى لله. ولكن الصلاة هى لبناء الشركة والعلاقة مع الله. ينبغى أن نستمر فى طلب الله. ولكن هذا لا يعنى أن الله يستجيب لكل طلباتنا.

(٨)
يرتبط نمونا الروحى بأن نعترف بعضنا لبعض بخطايانا.

قال الرسول يعقوب: "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات، وصلوا بعضكم لأجل بعض لكى تشفوا. وطلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها" (يعقوب ٥:١٦).

لعله من الطبيعى أننى عندما أخطىء فى حق أحد أن أعترف له بأنى أخطأت إليه. فالاعتراف هنا أسلوب إيمانى حضارى، يعاون الإنسان أن يكون أميناً فى القول والفعل. فالمخطىء، عندما يعترف بخطئه. يكون ذلك إيذاناً بأنه لا يريد أن يكرر الخطأ. وباعترافه يضع الحق فى نصابه.

لكن الاعتراف الأول هو لله. فكل أخطاء الإنسان ضد قداسة الله وبره. والاعتراف لله طريق التحرر والبر والغفران. وفى المثل الذى ذكره السيد المسيح عن الابن الضال (لوقا ١٥)، الذى طلب نصيبه من مال أبيه وخرج إلى أرض بعيدة، ثم عاد مرة أخرى، نرى أن الأب كان فى انتظار ابنه دائماً. وغفران الأب قائم. والابن يحصل على الغفران متى عاد تائباً. فقلب الله الكبير يغفر. ولن يتحقق الغفران فى حياة الابن سوى فى حالة عودته لأبيه ثانياً.

الاعتراف وحده لا يكفى. الاعتراف، لابد أن ترافقه توبة. والاعتراف قوة فى حياة المعترف. فالاعتراف يرتبط بإحساس الإنسان بندامته على خطيته ثم توبته الصادقة. والاعتراف والتوبة يعبران عن رغبة الإنسان فى عدم العودة إلى الخطأ.

ومتى أخطأ إنسان فى حق إنسان آخر، كان ملتزماً أن يعترف له عما بدر منه. قد يقبل الطرف الآخر الاعتراف والاعتذار وقد لا يقبل. لكن الذى يعترف يكون قد عبَّر عن مشاعره الصادقة.

والذى يخطىء إليك، ولا يعترف بخطئه، إنسان متكبر عنيد. مشكلته فى كبريائه. فهو يحتاج إلى شفاء النفس لكى يتمكن من الاعتراف بما صدر منه.

ليس فى الاعتراف بالخطأ كبير أو صغير. فالاعتراف بالخطأ يصدر عن قلب كبير. فالذى أخطأ فى حق الآخر يعترف له. والكبير -سناً أو مركزاً- ينبغى أن يعترف للصغير بما حدث منه.

الاعتراف والتوبة سمة لشفاء النفس. فالذى يعترف بالخطأ الذى صدر منه، إنسان كريم النفس، صادق مع نفسه، أمين للغير. والذى يقبل الاعتراف والاعتذار شخص كريم الأخلاق.

أراد البعض أن يستخدم هذه العبارة بأن يعترف الناس بعضهم لبعض بخطاياهم. وهناك جماعات تصلى معاً، وعندما تجتمع للصلاة، يعترف كل فرد بخطاياه لكل الجماعة، وهذا تصرف غير مسئول. فالاعتراف للجماعة هنا ليس فى محله. وليس من عمل الجماعة أن تستمع لاعترافات أفرادها. فالاعتراف لله وحده.

والخطورة هنا أن أسرار كل فرد فى الجماعة تكون فى يد الجماعة كلها. ولو تصرف شخص من الجماعة بطريقة غير مسئولة، لكان تصرفه تهديداً لسمعة كل أفرادها، وإلحاق الضرر بهم.

عندما تتكون جماعة صلاة، فهى لا تحل محل الله. ومتى اعترف واحد بخطاياه للجماعة، فليس فى الجماعة قوة للغفران نيابةً عن الله، فلا هى فى قدرة الجماعة، ولا من حق أعضائها كبشر، فالغفران من الله. والإنسان غير مُطالب أن يعلن خطاياه الشخصية للجماعة.

(٩)

كلما نما الإنسان روحياً، أهمل الدنيويات والماديات وشئون العالم.

ظهرت اتجاهات عديدة فى مراحل متعددة من تاريخ الكنيسة تدعو لإهمال العمل الدنيوى كدليل على الروحانية. فالعزلة عن العالم طهارة، والتقوى فى الوحدة والبعد عن الشر. والمادية هى سر الفساد فى العالم. وطريق القداسة هو فى البعد عن المادة.

وظهرت اتجاهات عديدة مشابهة لذلك، ولكنها مرتبطة بظروف أخرى. فعلى سبيل المثال: الخدمة الروحية لها أهمية كبرى. فالشاب يقدر أن يقوم بها. ولكن الشاب تزوج وأصبح رب عائلة، فهل يهمل الخدمة؟ والزوجة صارت أماً، ولا تقدر أن تهمل طفلها إلى جانب عملها؟ فهل تهمل الخدمة؟ أليست الخدمة أولاً؟

والحياة الجنسية فى الزواج، هل هى متعة شريرة لابد منها؟ أم أنها جزء من الحياة الزوجية له قدسيته؟ وهل الإقلال من المعاشرة الجنسية طهارة؟

وما المقصود بالقول: لا تشاكلوا هذا الدهر؟ وما المقصود بالقول: ولا تشتركوا فى أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحرى وبخوها؟

خلق الله العالم المادى، وكان كل ما خلقه حسن. فلم يخلق الله الشر. وخلق الله الإنسان. وكان ذلك حسناً جداً. فخليقة الله بارة وبريئة.

خلق الله النظم البشرية للحياة. فالحياة الجنسية لآدم وحواء هى نعمة من نعم الله على الإنسان. والإنسان ملتزم بإعطاء المتعة الجنسية الكافية لذاته وللطرف الآخر كجزء من النعم التى أعطاها الله للإنسان. ولا يجوز للإنسان أن يحرم نفسه أو الطرف الآخر من حقه الواجب فى المتعة الجنسية.

العزلة ليست طهارة. والمعتزل عن المجتمع لا يتطهر لأنه معتزل، فالخطية تخترق ستار العزلة، وتدخل إلى المعتزل داخل كهفه. فالخطية -أصلاً- تنبع ليس من خارج الإنسان بل من داخله. وكافة الشرور التى تصدر من الإنسان تنبع من داخله. والطهارة الحقيقية أن يعيش الإنسان ظروف مجتمعه، ويواجه كل التجارب وينتصر عليها.

والطلبات المادية ليست شراً. فقد اغتنى إبراهيم، واغتنى يعقوب. ولم يكن هذا شراً. إلا أن هناك اتجاهاً بتقديس الفقر. فالله، هو "ربنا بتاع الغلابة". والفقر حشمة. ولأن المجتمع يغلب عليه طابع الفقر، فالفقراء يريدون أن يكون الله لهم وحدهم دون غيرهم. وهذا بُطل. فليس للإنسان أن يستحوز على الله. والله مِلك للجميع.

مثل هذه الأفكار جاءت من الديانات الوثنية القديمة. واخترقت المفاهيم المسيحية منذ بدء تاريخها، ويلزم لنا أن نفصل بين مفهومنا عن الإيمان المسيحى وبين المفاهيم الواردة إليه. فنحن مدعوون للاندماج فى المجتمع. اختلط المسيح بالمجتمع البشرى، وتعامل مع جميع أنواع البشر.

والالتزام الأسرى مسئولية أمام الله. والإنسان ملتزم أمام أسرته. فنمو الأسرة ومشاركتها، التزام روحى، له أولوية التقدير والاهتمام فى حياة الإنسان. ولا يجوز إهمال الأسرة فى سبيل الخدمة خارج الأسرة.

(١٠)

فلان تقى جداً وممسوح من الرب . له كلمة مؤثرة ، والرب يتحدث من خلاله .

يصف كثيرون قيمة الإنسان بقربه من الشخصيات الهامة. وبالتالى فإن الشخصية الروحية المرموقة هى الشخصية التى لها علاقة قريبة جداً من الله. وتُستخدم لهذه الشخصية مواصفات عديدة، وتُعطى وظائف متنوعة. فهو ممسوح من روح الله. وهو "بركة". وهو قديس يعيش حياة بلا خطية. وهو يعرف الأسرار. والله يعطى له أسراراً عديدة. وله القدرة على طرد الشيطان. إلى غير ذلك من المواصفات البشرية.

ويغالى البعض فى فهم هذه الصفة. فذلك الإنسان التقى لا يخطىء. وله الحق أن يعطى تعاليم وتعليمات يلزم تنفيذها حرفياً. فهى أقوال الله. ويلزم لمن يتعاملون معه أن يطيعوه. وهناك أشخاص يبحثون عن الزعامة والسلطة، فيجدونها فى التابعين. وعامة الناس يريدون البركة من هؤلاء، فيجرون وراءهم كالمجانين، دون ضابط. وهناك أناس لا يريدون أن يفكروا لأنفسهم، فيعيشوا تابعين.

لا يوجد على الأرض إنسان كامل. فكل إنسان له قوته وضعفاته. هناك إنسان له ضعفات تظهر واضحة ويراها الناس. وآخر له ضعفاته وله القدرة

على إخفائها فلا تظهر للناس. قال الرسول بولس عن نفسه: "ليس أنى قد نلت أو صرت كاملاً. ولكنى أسعى لعلى أدرك الذى لأجله أدركنى أيضاً المسيح يسوع" (فيلبى ٣:١٢)، ثم قال: "أنا لست أحسب نفسى أنى قد أدركت، ولكنى أفعل شيئاً واحداً، إذ أنا أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام" (فيلبى ٣:١٣).

وقال الرسول بولس فى مكان آخر: "لأنى لست أعرف ما أنا أفعله، إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل" (رومية ٧:١٥). وأوضح قوله هذا فى كلمات أخرى: "ولكنى أرى ناموساً آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى، ويسبينى إلى ناموس الخطية الكائن فى أعضائى" (رومية ٧:٢٣).

ففى أعماق كل إنسان القدرة على الشر والخير. وليس هناك إنسان كامل قط على وجه الأرض. وأما الشيطان فهو موجود، لن يقدر على طرده أحد. والشيطان يعمل داخل عقل الإنسان ومن خلاله. والذى يدّعى بأنه طرد الشيطان كاذب، وليس الحق فيه. قال الرسول بولس: "حينما أريد أن أفعل الحسنى أجد الشر حاضراً عندى" (رومية ٧:٢١).

بمجىء السيد المسيح، ثم إرسال الروح القدس، أصبحت الصفة الظاهرة فى تعليم العهد الجديد أن الله يتعامل مع كل إنسان. فالله موجود. إنه ليس بعيداً -كما علّم العهد القديم فى فترات سابقة والله ليس مخيفاً. فهو أب للبشرية، وهو محب للجميع. ويقدم لنا العهد الجديد شخص المسيح: فهو محب، ولم يأت ليدين العالم بل ليخلّص به العالم. وقد غفر السيد المسيح لمن أخطأوا إليه لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.

فالله قريب جداً من كل إنسان. وهو يتعامل مع كل إنسان. كانت الصورة فى العهد القديم أن روح الله يفارق الإنسان متى أخطأ. لكن الصورة التى نراها فى العهد الجديد هى أن روح الله لا يفارق الإنسان مهما أخطأ. فروح الله متواجد مع الإنسان، يبكته على خطيته، ويشجعه على حياة البر، ويقيمه من السقوط، ويدفعه للعمل. فروح الله رفيق للإنسان فى كل مسيرة حياته.

من هنا أصبح واضحاً أن الإنسان لا يحتاج إلى وسيط بينه وبين الله. ويقدر الإنسان أن ينمى نفسه. وقرب الله من الإنسان لا يرتبط بمقاييس أخرى غير نعمته الغنية المتفاضلة على الإنسان. وبذلك، فالله لا يحتاج إلى وسطاء بينه وبين البشر. والله يتعامل مع الفرد مباشرة.

والتربية الروحية الواعية الناضجة تعاون الإنسان على أن يصدر بنفسه القرارات الخاصة به. فقدرة إصدار القرار قدرة إيمانية أساسية فى حياة الفرد فى علاقته بنفسه، وعلاقته بإلهه، وعلاقته بالغير.

ليس معنى ذلك أنه لا مكان للنصيحة. فالنصيحة غالية. لكن الإنسان الناضج يستمع للنصيحة لا ليطيعها بل ليفكر فيها ويمتحنها، ثم يقرر هو ما يحدث. لكنه من الخطأ الفاحش أن فتاة تسأل قائداً روحياً: هل تتزوج من فلان أم لا؟ وما يقوله القائد نهائى. كما لو كان هذا القائد يحمل صوت الله وأحكامه.

والقول بأن أشخاصاً معينين قريبين من الله جداً لا يخطئون عبث سخيف. فليس هناك من لا يخطىء. والقول بأنهم يحملون أسراراً من الله عن غيرهم محض هراء. فالله يعامل كل واحد مباشرة، ولا يتعامل معنا من

خلال وسطاء.

أما القول بطاعة المرشدين، فالطاعةَ هذه، طاعة في الرب، وبالتالي فهي طاعة مسئولة. معنى ذلك أن الإنسان يناقش ما يسمع، ولا يخضع دون فهم. فالطاعة الوحيدة الكاملة هي لله وحده. ولا يجوز لنا أن نصنع من المرشدين آلهة.

كان شخص يصلى، ثم جاء المرشد، ووضع يده على رأسه، وقال له: اطلب غفران الله من الخطية الجنسية التى ترتكبها. قال المصلّى أنا لم أرتكب خطية جنسية. لكنه -فى حالة انفعال- قال: لكن الرب قال كذلك. فالرب صادق. وبدأ يفتش علّه يجد خطية جنسية قد ارتكبها.

هناك أشخاص يبحثون لأنفسهم عن وسائل للزعامة والسلطة والسيطرة على الغير. ومن الناس من يطلب زعيماً له يدير له حياته وشئونه. فالطاعة هنا نتيجة اتجاه فى شخصية الإنسان التابع. فالطاعة لا يجوز أن تتحقق لمجرد الطاعة، ولا يجوز أن تتواجد بسبب الخوف. فمتى لم تتحكم النزاهة فى الزعيم ألحق بتابعيه الخطر.

يريد الله مؤمنين ناضجين واعين مسئولين، لا يعيشون تابعين للغير. فمتى انحرف هذا القائد ضاعوا فى الطريق. يريد الله من أتباعه أن تكون لهم علاقة مسئولة مباشرة معه، لا يخترقها أحد، أيا كانت مكانته.

(١١)

صنع المسيح معجزات ، وبذلك يمكننا نحن أن نصنع معجزات مثله .

يتحدث كثيرون عن المسيح بأنه صانع المعجزات. وقد كانت أقوال المسيح وأعماله هى رسالته العظيمة. لقد صنع المسيح معجزات، لكنها لم تكن هدفاً له. فعندما طلب الناس منه أن يصنع آيات ومعجزات رفض. فالناس ينبهرون بالمعجزات، وينسون ما هو أهم.

بل كانت معجزات المسيح وسيلة لغاية. فقد انتظر اليهود المسيا الذى يصنع المعجزات. فمعجزات المسيح ارتبطت بهدفه الأساسى وهو رسالة الفداء، ولم تكن المعجزات رسالته أساساً.

وهناك أنبياء فى العهد القديم صنعوا معجزات. ورسل المسيح وتلاميذه لم يهدفوا لصنع المعجزات، ولكنهم صنعوا معجزات قليلة. ولو لاحظنا العهد الجديد فإننا نرى أن المعجزات تمثل شيئاً محدوداً جداً، وليست لها مكانة أساسية.

يضاف إلى ذلك أن بعض معجزات السيد المسيح كانت مرتبطة بظروف العصر. فشفاء البرص فى عصر المسيح كان مهمة يحتاج إليها الناس، فلم يكن علاج البرص معروفاً. واليوم اكتشف العلماء شفاء البرص بالطب

العادى. فلا داعٍ لمعجزة للشفاء والعلاج متاح وميسور.

ولما كان الجرى وراء غير المألوف من طبيعة العصر، فنحن نشهد مواقف عجيبة، ترتبط بشهوة البحث عن معجزة. فهذه فتاة فاتها قطار الزواج، وهى تلفت النظر إليها بزيت يخرج من يدها وهى تصلى. وكأن القضية ترتبط بقداستها التى دفعتها لعدم الزواج. وذاك شخص يحدثك أن المسيح ظهر له فى المنام وحدثه. وآخر يرى الشيطان فى المنام، ثم يأمر بطرده فيختفى الشيطان. وثالث يقول لك: لقد حدثنى الله فى أذنى، وأنا كنت يقظاً. لقد استمعت لصوته. وأنا أطيع هذا الصوت.

وهناك من يبذل جهداً ليوضح لك أنه على علم بأسرار الله فى الخليقة، وأنه يعرف المستقبل. وترتسم صورة لأولئك الذين يدّعون بأنهم قادرون على سقوط أسوار العدو كما سقطت قديماً أسوار أريحا. إلى غير ذلك من التصورات الانفعالية.

السعى وراء المعجزة هو البحث عن الطريق السهل لتحقيق الأهداف. فالباحث عن معجزة يريد أن يحقق ما يريد دون جهد أو تعب أو تفكير. كما أنه يسعى إلى تحقيق الانبهار بسبب حدوث شىء خارق، وبالتالى فصانع المعجزة تقى عظيم قريب من الله. ويحظى بتقديس الناس له، وجريهم وراءه دون عقل أو تفكير.

(١٢)
هناك عبادة باردة، وهناك عبادة ملتهبة، الأخيرة تجعل المتعبدين فى السماء، وتدفعهم لحياة أعمق وأفضل.

يكثر الحديث هذه الأيام عن الخدمة الباردة، والعبادة الحارة. ويرى البعض أن العبادة الباردة، هى التى تخلو من ترنيمات انتعاشية، ومن صيحات عامة، وانفعالات فى الصلاة والعبادة. ويرون أن هذه العبادة لا يتواجد الله فيها، ولا يحل فيها روح الله. أما العبادة الملتهبة فهى العبادة التى يتواجد فيها الله بنعمته وروحه، والتى فيها يشعر الناس بالنشوة والبركة.

ونتيجة لذلك تجد أن بعض الناس يتزاحمون على الكنائس المدعوّة حارّة، وربما يقلون فى الكنائس المدعوة غير حارة. فما هو سر التزاحم؟ الكنائس المدعوة حارّة تتبع حركات كارزماتية أو خمسينية أو كليهما، فالأولى ترتبط بالانفعالات، والأخيرة تضيف إليها التكلم بالألسنة.

فالانفعالات العاطفية العارمة تعاون فى زيادة التماسك كجماعة، يرنمون كإنسان واحد، وبصوت واحد، يلهبهم الحماس، وتجمعهم مشاعر الوحدة. ولا شك أن هذه القيم لها أهميتها. فالحماس لازم، والمشاركة الجماعية لازمة.

إلا أن مشكلة الانفعال العاطفى الجياش، أنه يدفع بالإنسان خارج دائرة

التعقل. قد يَعِد، لكنه لن يوفى. قد يتحمس لشىء، لكنه سرعان ما يبرد بالسرعة التى انفعل بها. ولهذا فنحن نرى أن الاجتماعات العاطفية تأتى بثمار سريعة ضخمة، ولكنها سرعان ما تنقلب إلى رِدّة كبيرة.

يغالى بعض الناس فى العبادة الانفعالية، فيعيشون فى الخيال، ويظنون أنهم فى السماء- وبعد العبادة يعودون إلى الأرض، إلى الواقع. ويحس الإنسان بالضياع. أين هو؟ فالسماء بالنسبة له متعة فترة العبادة، والواقع بالنسبة له بعيد عن السماء. وكان الأحرى بالعبادة المتعمقة أنها تجعل الإنسان يعيش فى الواقع. ففاعلية العبادة وتأثيرها يكون دائماً على الواقع وعلى الحياة اليومية.

مرحلة الانفعال العاطفى الهوجاء رحلة سراب. يظن فيها المتعبد أنه حقق أحلاماً وآمالاً، وسرعان ما يعود إلى حيث كان. والواقع أن العبادة الحارّة لا تعطى صاحبها فترة كافية للتفكير، ووضع كافة الأمور بميزان عادل، وبالتالى فردود الفعل تكون عادة غير سليمة.

لكن الناس يسرعون وراء مثل هذه الاجتماعات، فكثيرون من الناس يعيشون حياة الكسل الفكرى، فلا يريدون أن يفكروا، ولا يريدون أن يبذلوا الجهد. هذا النوع من الناس لا يريد حمل مسئولية. يريد أن يسمع تعليمات ويتفاعل معها. وفى وسط الانفعالات الهوجاء، يشعر الإنسان أنه حقق لذاته وعوداً براقة ساحرة، سرعان ما تذوب وتختفى مع الزمن.

وهناك اجتماعات تخاطب العقل والفكر. فالعبادة عند الرسول بولس "عبادة عقلانية". فيها يكون الإنسان مسئولاً، يفكر باتزان وهدوء، ويبنى قيمه من خلال تفكير عميق، قد يحتاج أن يناقش ما يسمع.

هذه العبادة قد تحتاج إلى إذكاء الحماس، وتأكيد وحدة الجماعة. لكنها -ولا شك- تتمتع بعمق الروحانية، كما تتأكد من التواجد فى الحضرة الإلهية. فالفرق بين الحماس الانفعالى والحماس العقلانى أن الأول غير واقعى، والآخر واقعى، الأول خيالى والأخير متزن يقينى.

(١٣)
لابد من تطهير جماعة الرب من الأشرار بكل حزم وقوة .

من هى جماعة الرب؟ تتجه آراء عديدة نحو شعب الرب. فالكنيسة هى شعب الرب. هم المؤمنون. وهم الذين يكوّنون جماعة الرب فى موقع جغرافى معين. فلا يجوز أن يكون فى الكنيسة سوى المؤمنين.

والمؤمنون عند البعض هم "المولودون ثانية". أى الذين أخذوا اختبار الميلاد الثانى، فى موعد محدد، وبطريقة معينة. فأى مؤمنين ليست لهم هذه الاختبارات ليسوا مؤمنين. فالذى وُلد من أسرة مسيحية، وتربى تربية مسيحية ليس مؤمناً. إنه خاطىء. فلابد من أن يختبر الميلاد الثانى بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة.

والذين لم يحصلوا على اختبار الميلاد الثانى لا يجوز تركهم فى الكنيسة. لابد من فصلهم. فكيف يُصرّح لهم بالحصول على العشاء الربانى. فالعشاء للمؤمنين فقط. وغير المؤمنين يبقون خارج الكنيسة حتى يحصلوا على الإيمان.

وقد درجت كنائس على الحكم على أعضائها: هذا مؤمن، وهذا شرير. والشرير لابد أن يفصل. وهناك كنائس حكمت على بعض أعضائها بالفصل،

لمجرد أن أحدهم يعمل يوم الأحد- مثلاً؟ إلى غير ذلك من الأحكام.

ناقشنا قبل ذلك مشكلة القوانين الشفهية التى وضعتها جماعات مؤمنة أو كنائس عمّن هو المؤمن ومن هو الخاطىء. ومن خلال وضع هذه القوانين، حكمت كنائس وجماعات على أفراد بأنهم خطاة، ولا تجوز لهم الشركة الحية مع المؤمنين.

فمن هو المؤمن؟ هل هو الشخص الذى نال اختبار الميلاد الثانى والتجديد فى لحظة تاريخية معينة، وسجّل تاريخها؟ فماذا نقول عن تيموثاوس، الذى عرف الكتب المقدسة والإيمان منذ الطفولية، ونشأ نشأة مسيحية إيمانية. وأيهما أهم؟ أليست التربية المسيحية مهمة جداً؟ أليست النشأة المسيحية الإيمانية مسئولية الأسرة المسيحية؟ ولا يجوز التهاون فيها أو الإقلال من شأنها.

ومن قال لنا إن المولود ثانية وله اختبار محدد مؤمن؟ ألم يكن يهوذا ضمن تلاميذ الرب الذين اختارهم؟ ومن ذا الذى يعرف المؤمن الحقيقى؟ كيف يمكن الحكم على الإنسان الملىء بالحقد والكراهية والحسد والرياء؟ ألم يقل الرسول يوحنا فى رسالته الأولى: "إن قلنا إننا بلا خطية نضل أنفسنا وليس الحق فينا"؟ (يوحنا الأولى ١:٨). هناك خطايا لا يمكن الحكم عليها بقانون: الخداع، الكراهية، الكبرياء الروحية، احتقار الغير؟. ومن الذى أعطى الناس أن يحكموا على الناس؟!

بل إن مقاييس الحكم تختلف عند المسيح عنها عندنا. فالمسيح يعرف أولئك المرائين، فيقول لهم: "ويل لكم". ويرى الزانية التى أمسكت فى ذات الفعل، فيقول لها: "أما دانك أحد. امض بسلام". قابل المسيح بطرس بعد

إنكار الأخير له، ولم يحاسبه أو يحاكمه. فقد قدَّر المسيح موقف بطرس أمام الضغوط الرهيبة التى واجهها. ولكن المسيح تألم لموقف يهوذا، ولم يصدر له عفواً.

كما أن أفضل وصف يصل إليه الإنسان أنه "خاطىء غُفرت خطاياه". فليس على وجه الأرض قديس لم يخطىء ولا يخطىء. وليس على وجه الأرض إنسان برىء كل البراءة. وكلاً من الخير والشر موجود داخل الإنسان. والشيطان من خلال عقل الإنسان يدفعه للشر، كما أن قوة الخير داخل عقل الإنسان تدفعه للخير.

يتعلل البعض بوصايا الاعتزال فى العهد القديم، اعتزال، شعب الرب. ولابد من أن نتحقق من المواقف. فالمواقف فى العهد القديم روحية سياسية. وهى ترتبط بدولة قائمة، ولها أعداء سياسيون يريدون افتراق الشعب وتحطيمه من الداخل. وللشعب قوانين سياسية واجتماعية تحكمه. هذا يختلف كل الاختلاف عن شعب الرب فى العهد الجديد. فشعب الرب -فى العهد الجديد- ليس دولة، وليس حُكماً أرضياً. وشعب الرب منتشر فى كل شعوب العالم ودُوَلِه، ومندمج وسط المجتمعات الدينية وغير الدينية. فبعض وصايا العهد القديم لا تصلح لنا اليوم، لاختلاف الأوضاع السياسية والدينية.

فمن جانب، لا يجوز الحكم النهائى على أحد بأنه مؤمن أو غير مؤمن. ومن جانب آخر، فقد صرح المسيح أن نترك الزوان مع الحنطة ينميان معاً. وذلك حمايةً للحنطة. فمن أدرانا أننا عندما نقتلع الزوان من الجماعة أننا لا نخطىء ونقتلع معه الحنطة؟!

وقد اشتهر الوعاظ بأسلوب التوبيخ. فكم من مواعظ مليئة بأساليب التوبيخ والحكم على الناس. وكم من وعاظ يحكمون على الناس من خلال "شرع الله"، وليس لهم الحق فى ذلك. ألم يقل الرسول بولس: "شجعوا صغار النفوس، أسندوا الضعفاء، تأنوا على الجميع" (تسالونيكى الأولى ٥:١٤). ألم يطلب الرسول بولس أن نعامل الضعفاء بالوداعة، ألم يتحدث كاتب الرسالة إلى العبرانيين فى نفس الموضوع قائلاً: "لنلاحظ بعضنا بعضاً للتحريض على المحبة والأعمال الحسنة"؟ (عبرانيين ١٠:١٤).

فأساليب القمع والقهر والتَبكيت والتسخيف والتحقير لا يتفق مع أسلوب المسيح، الذى كان قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء. ينطبق هذا على معاملة البالغين كما هو فى معاملة الأطفال. وكل محاولة لتطهير جماعة الرب تخطىء إلى الإنسان، كما تخطىء إلى الله.

فهل نتواضع أمام الله؟ لسنا أفضل من غيرنا. كلنا أخطأنا وأعوزنا مجد الله وبره.

(١٤)

الرسالة الأولى للكنيسة وللمؤمنين هى خلاص الخطاة، فلا يجوز لخدمة أخرى أن تطغى عليها.

ركّزت الكنيسة -بكل اتجاهاتها- فى الفترة الأخيرة من القرن العشرين على قضية تجديد الخطاة وخلاصهم. فأصبحت المواعظ كلها تتجه إلى دعوة الخطاة إلى التوبة، والميلاد الثانى. وهناك كنائس ترى أن فى اجتماعاتها كلها -للرجال والنساء، للشباب، وحتى للأطفال- دعوات خلاصية للميلاد الثاني. ولهذه الدعوة إغراءاتها. فهى دعوة سهلة. وموضوعاتها سهلة المنال. والدعوة للأفراد لها جاذبيتها. فالدعوة لسعادة الأفراد وراحتهم. أى أن الدعوة بالنسبة للناس ترتبط بمصالحهم الشخصية وحياتهم.

ويهتم المؤمنون بهذه الدعوة لتصل إلى غيرهم. فكلما كانت المواعظ مليئة بالتوبيخ والتوجيه للتوبة، أحس المؤمنون بسعادة. فالرسائل واضحة. ويكفى أن تصل كلمات التوبيخ للأشرار لعلهم يتوبون ويخلصون. والحديث عن التجديد الفردى يرتبط بالخطايا الفردية التى تحطم الإنسان وتلحق به الضرر.

يرتبط بهذه القضية بناء المؤمنين، وكذلك توجيه المؤمنين فى حياة إيمانهم. وهذا يرتبط بالتوجيه الروحي القانوني. فالمؤمنون مدعوون لممارسة

قوانين الجماعة عن السلوك الروحى والإيمانى. وقد سبق شرح هذه النظرية من قبل.

وحقيقة الرسالة التى تهتم بتنمية المؤمن على حياة سلوكية متميزة لا يجوز أن تكون لمجرد الخضوع لقوانين سلوكية وضعتها الجماعة. بل تحتاج إلى إرشاد الناس لتنمية ذواتهم من خلال العلم والمعرفة، وفهم أساليب التربية العاطفية الناجحة. ففى قول الرسول: كونوا رجالاً (ويوجهها للجميع) بمعنى النضج والالتزام للرجال والنساء. وقول الرسول: كونوا أنتم متسعين (كورنثوس الثانية ٦:١٣)، يرتبط باتساع الفكر والرؤية. وقول الرسول بولس: "لا تقدر العين أن تقول لليد لا حاجة لى إليك، أو الرأس أيضاً للرجلين لا حاجة لى إليكما" (كورنثوس الأولى ١٢:٢١)، مما يحتوى قبول الغير والقدرة على التعامل معهم، إلى غير ذلك من القيم الأصيلة للحياة والشركة والمعاملة.

هذا إلى جانب تربية القيم الإنسانية. قال بولس الرسول فى رسالته لشعب أفسس (٤:٢٥ و٣٢): "اطرحوا عنكم الكذب، وتكلموا بالصدق، كل واحد مع قريبه، لأننا بعضنا أعضاء البعض... وكونوا لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين، متسامحين، كما سامحكم الله أيضاً فى المسيح" (أفسس ٤:٢٥و٣٢). وقال أيضاً الرسول بولس: "وادين بعضكم بعضاً بالمحبة الأخوية، مقدِّمين بعضكم بعضاً فى الكرامة" (رومية ١٢:١٠). وقال أيضاً: "لا تكونوا مديونين لأحد بشىء إلا بأن يحب بعضكم بعضاً" (رومية ١٣:٨).

وتحتاج الجماعة إلى تنمية فكرية سلوكية لتفهُّم الدوافع الطبيعية

للإنسان، وأثرها على سلوكه، وبعض القيم الفردية والجماعية كالأمانة، والغضب، والحياة العملية، والجنسية، إلى غير ذلك، ولابد من أن تكون الدراسة صحيحة علمياً وصحيحة إيمانياً.

إلا أننا إن عدنا إلى رسالة السيد المسيح، وهى أساس الرسالة المسيحية، نجد أن المسيح واجه مشكلتين: مشكلة الخطية ومشكلة الفقر. والخطية ليست الخطية الفردية فقط، بل الخطية الجماعية والجمعية أيضاً. فهناك خطايا للمجتمعات تحتاج أن نواجهها. وكما نتحدث عن التجديد الفردى نحتاج للحديث عن التجديد الجماعى.

أما حديث المسيح عن مشكلة الفقر، فلو تابعنا الأناجيل، نجد أن نحو نصف أقوال المسيح وأعماله ترتبط بالفقر. وعندما نتحدث عن الفقر، نتحدث عن الجوع والمرض والإقلال من إنسانية الإنسان والآلام والمعاناة البشرية بسبب كافة المشكلات المجتمعية المتواجدة على وجه الأرض. فالفقر، والظلم الاجتماعى، وضياع حقوق الإنسان، واحتقار المرأة والإقلال من إنسانيتها، وكبت حريات الناس، إلى غير ذلك من المشكلات الجماعية أو الجمعية، كلها خطايا جماعية يعانى منها المجتمع. وقد اهتم السيد المسيح بها كل الاهتمام.

قال السيد المسيح: "روح الرب علىَّ لأنه مسحنى لأبشر المساكين، أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب، لأنادى للمأسورين بالإطلاق، والعمى بالبصر، وأرسل المنسحقين فى الحرية" (لوقا ٤ :١٨). كل هذه المشكلات هى مشكلات المجتمعات. تجدها داخل الكنيسة وخارجها. قال الرسول يعقوب: "إن كان أخ وأخت عريانيين، ومعتازين للقوت اليومى، فقال لهما

أحدكم امضيا بسلام، استدفئا ، واشبعا ، ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد ، فما المنفعة"؟ (يعقوب ٢: ١٥و١٦) وقال السيد المسيح: "تحب قريبك كنفسك" (متى ٢٢: ٤٠).

فالكنيسة ملتزمة برسالة السيد المسيح أن تواجه قضيتى الخطية، والفقر. فلو أهملت الكنيسة واحدة من هاتين الرسالتين، تكون قد أهملت جانباً مهماً من رسالة السيد المسيح. فالكنيسة مسئولة عن المجتمع لترسيخ قيم الجماعة التى ترد للإنسان قيمته الإنسانية، وترد للمظلوم حقه المسلوب، وتحقق العدالة الاجتماعية. فهذه قيم أساسية فى المجتمع الذى خلقه الله. ولا يجوز إهمالها.

(١٥)

الغفران غير المشروط هو طريق المسيح للصفح عمن يسىء إلينا .

قال المسيح: "إن قدمت قربانك إلى المذبح، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح، واذهب أولاً واصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك" (متى ٥:٢٣ و٢٤). وقد علّمنا السيد المسيح أن نصلى قائلين: "اغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا". وقال الرسول بولس: "كونوا لطفاء بعضكم نحو بعض، شفوقين، متسامحين، كما سامحكم الله أيضاً فى المسيح" (أفسس ٤:٣٢). ودعانا السيد المسيح أن نصلى لأجل الذين يسيئون إلينا ويضطهدوننا. كما طلب منا أن نحب أعداءنا.

يعد الغفران من بين الركائز التى تستند إليها المسيحية: غفران الله للإنسان، وغفران الإنسان للإنسان. فالله يغفر للإنسان بلا حدود. والإنسان مطالب بأن يغفر لغيره أيضاً بلا حدود.

خطأ الغير قد يكون نتيجة تصرفك. فأنت تتحدث عن موقف ما بأمانة، فتكشف عيوب الآخر فيحاول الآخر أن ينتقم منك. وقد تكون إساءة الآخر نتيجة الحسد والحقد والكراهية، فالمجتمع ملىء بكثير منها. فمتى نجحت

وتقدمت وجدت حولك مجموعة من الحاقدين والحاسدين يريدون الإساءة إليك.وقد يكون من الحاسدين والحاقدين أشخاص ممن كانوا فى وقت ما أصدق الأصدقاء وأقربهم إليك. هذه الظاهرة من أقسى الظواهر على قلب الإنسان. وقد تنتج صراعات الحقد والكراهية من المنافسين لك فى عمل مشابه، فعملك يؤثر عليهم، أو يكشف عيوبهم ونقائصهم. دون أن تقصد أنت ذلك.

ليس من السهل تحليل مواقف الإنسان الذى يلعب الدور الخطير فى الإساءة إليك. فنفسية الإنسان معقدة جداً، وأسباب الإساءة عديدة. وقد تكون إساءة الآخر إليك سطحية وبريئة.

والإساءة تتنوع، بين إساءة لا تؤثر، وإساءة أخرى تأثيرها خطير. فهناك الشخص الذى يهمه أن يحطمك وأن ينال منك. ومتى كانت الإساءة عميقة الأثر، فإحساس الإنسان بالغفران ليس سهلاً ميسوراً. وعندما يجد الإنسان صعوبة فى الصفح عمن أساء إليه إساءة كبيرة، فهذا طبيعى.

عبارة "ربنا يسامحك" يرى البعض أنها وصفة سحرية لمواجهة كل الذين يسيئون إليه. ولكنها ليست دائماً كذلك، فأحياناً نصفح عن المسىء، ولكنه يواصل إساءاته. فالصفح ليس -دائماً- وسيلة شفاء. كما أن الصفح -فى مرات- يحتاج أن يرافقه حذر وحرص حتى لا يلحق الضرر بمن يصفح عن غيره. وأحيانا يصلى الإنسان من أجل من يسىء إليه، قبل أن يغفر له. فالغفران ليس دائماً سهلاً.

غفر المسيح لمن أساءوا إليه على خشبة الصليب لأنهم لم يكونوا يعلمون ماذا يفعلون. وإن قدمت قربانك على المذبح، وتذكرت أن لك شيئاً عند

أخيك، فلا شك أنك لا تعطل تقديم الذبيحة لله. فهو قد يرد ما لك، وقد لا يرده.

وقد تسىء أنت إلى الغير، وتطلب غفران الله، ويغفر الله لك، لكنك لا تقدر بسهولة أن تنسى إساءتك للآخر الذى ألحقت به ضرراً ما. فغفرانك لنفسك ليس دائماً سهلاً.

الغفران عطاء سخى يعطيه الله للإنسان بقلب متسع، فهو يعرف ضعفات الإنسان. والإنسان يعطى الغفران من نفس المنطلق. لكن الغفران لا يجوز أن يكون رخيصاً، فلن يتحقق غفران دون أن يرتبط بتوبة صادقة من جهة المخطىء. والمخطىء الذى لا يعترف بالخطأ، لن يحصل على الغفران فى أعماقه.

يرتبط الغفران بحصول الإنسان على حقه. فهل يتنازل الإنسان عن حقه؟ أم يطالب بحقوقه؟ لا شك أن من حق الإنسان أن يطالب بحقوقه، فإحساس الإنسان بالظلم إحساس مؤلم. ولن يحقق الإنسان شفاء النفس ما لم يحس بالعدالة والحق. للإنسان أن يطالب بحقه، سواء كان هذا الحق قيمة أدبية تسترد له كرامته، أو كان مالاً أو شيئاً مادياً.

يجوز فى حالة معينة، أن يتنازل الإنسان عن حقه، متى رأى قيمة أعظم فى ذلك. ولكنك عندما تتعامل مع شخص مستبد، قاس، وظالم، فقد تتنازل عن حقك، فيعمل هو ليدفعك لتتنازل أكثر. فيزيد الظلم.

المسيحية لا تعلمنا الخنوع والذلة، لكنها دعوة الحق والعدل. والغفران يرتبط بشفاء النفس الذى لن يتحقق إلا مع العدالة. فالغفران دون شفاء النفس لا معنى له.

(١٦)

قتل فلان فى حادث سيارة ، علينا ليعزى الرب الأسرة ، فهذه إرادة الله .

موت إنسان فى حادث سيارة أمر يستحق الصلاة، كما يستحق مشاركة الأسرة فى آلامها. فمثل هذا الحدث يؤلم جداً كل الأطراف التى ترتبط بالحادث. والإنسان يحتاج للمشاركة من الغير، كما يحتاج لمشاركة الله التى تدخل إلى نفسه الهدوء والسلام رغم الألم العميق.

ولكن حادث سيارة: هل هو إرادة الله؟ هناك اتجاه تقليدى لتعليق كل أحداث الخليقة على الله. فالسائق قد يكون مخطئاً فى قيادته للسيارة، وقد يكون فى حالة السُكر -وقد يكون الشخص الذى مات هو الذى سار فى طريق خطأ أو خالف نظام المرور. فلماذا تعلق كل شىء على الله؟

جرى العرف بأن كل شىء "مقدَّر ومكتوب". وأن كل المقدر لابد أن يحدث. واستخدم البعض تعبيرات متنوعة توحى كلها بأن كل إنسان لابد أن يحدث له ما هو "مكتوب على الجبين". وهناك حوادث تُفَسَّر على أنها "قضاء وقدر". كل هذه التعبيرات تعنى وجود قدرة قاهرة تتحكم فى مصائر البشر، والإنسان لابد له أن يخضع لها.

وقد خلط الناس بين "المقدر والمكتوب" وبين "قضاء الله". فقضاء الله

يرتبط دائماً بعنصرين: الخير، ومسئولية الإنسان. فالله لا يصنع الشر. الشر دائماً هو من الطبيعة أو من البشر. فمتى حدث زلزال دمّر الكثير، فهذا من شرور الطبيعة، وليس من إرادة الله. والسائق أخطأ -بقصد أو بدون قصد- فهو المخطىء وليس الله.

وضع الله للطبيعة نظماً تسير بها. هذه النظم قد تضر أو تفيد. فالزلازل تدمر، والأعاصير تحطم. والمطر عندما ينزل يروى الأرض ويحطم الأكواخ الصغيرة. فهو يفيد ويضر فى آن واحد. فشرور الطبيعة لها آثارها.

عندما نردد القول: "هذه إرادة الله"، نحن نقصد إراحة نفسية الناس. فالناس -فى غالب الأوضاع- يخضعون لإرادة الله، ويصمتون. ولكننا نحتاج لمواجهة الواقع. فإرادة الشر فى الإنسان أو فى الطبيعة ليست من الله. ويستخدم بعض الناس تعبير "السماح الإلهى" ويميزون بينه وبين "الإرادة الإلهية". فالله لا يريد الشر. ولكنه يسمح به من خلال القوانين والنظم التى وضعها للطبيعة وللحياة.

وعندما يُقتل إنسان، يقولون إن الله -فى قصده- دبر إنهاء حياة ذلك الإنسان فى ذلك الوقت بنفس هذه الطريقة ولا وسيلة للإنسان أن يخرج منها. هذا قول قاسٍ جداً لا نرضاه للإله الذى نعرفه- إله المحبة التى لا حدود لها. فالله لا يصنع الشر، ولا يرضاه.

والآلام نصيب المؤمن وغير المؤمن. فالمؤمن معرّض للإصابة. ولا علاقة للألم والحوادث بالخطية. قال المسيح عن بارتيماوس الأعمى إن عمى عينيه لم يكن نتيجة خطيته. ولكنه وُلد أعمى. فهناك عوامل فسيولوچية أو وراثية تنتج عنها المشكلة. والإنسان يواجه مشكلته، ويحاول أن يتغلّب

عليها بأن يبنى حياته ومستقبله.

قد يدخل جندى المعركة، وقد يحمل فى جيبه العهد الجديد. قد ينجو من رصاص المعركة، وقد لا ينجو. ومشكلة الحياة أن كثيرين من الأبرياء يعانون وهم أبرياء.

روعة الإيمان المسيحى أنه يرينا الله شريكاً للإنسان. فالله يقف مع الإنسان المتألم، يسانده فى آلامه، ويعاونه على اجتياز الأزمة، وتجاوزها. وبذلك يواجه الإنسان الحياة، ويتغلب على مشاعر الحزن.

والإنسان الناضج، لا يبكى على اللبن المنسكب، ولكنه يكافح ويصارع رغم الألم، يبنى حياته ومستقبله. ويد الله تكون معه.

(١٧)
أنا فى المسيح ، لا أنتمى لكنيسة معينة تهمنى الخدمة ، فكل الكنائس كنيستى .

بعد حلول الروح القدس، حمل التلاميذ رسالة الإنجيل فانتشروا فى كل أنحاء الدولة الرومانية لنشر رسالة المسيح فى كل مكان. ومن ثم نشأت كنيسة المسيح. والكنائس الأولى التى تم إنشاؤها هى كنائس العهد الجديد.

وفى بداية التاريخ الكنسى، كان للكنيسة أن تفسر الأحداث، وتنظم العمل الإدارى. فبدأت الكنيسة. ولما كانت الكنيسة منتشرة فى أنحاء عديدة من العالم بدأ الخلاف على عقائد ونظم. فانقسمت الكنيسة إلى طوائف. وانتقلت الكنيسة من الرسل الأوائل، إلى الإكليروس الذى سيطر على الكنيسة فكراً وإدارة.

جاء مارتن لوثر ونادى بنشر الفكر فى القرن السادس عشر. وظهرت بعده اتجاهات فكرية متنوعة. ومن ثم انقسمت الكنيسة إلى مذاهب برتستانتية أخرى.

كما ظهرت الصراعات والخلافات بين المذاهب. فكل طائفة تفخر بعقيدتها وتوجه الاتهامات لغيرها. وكانت مرحلة الصراع والخلاف والتى لا تزال موجودة فى أماكن عديدة- مرحلة مريرة من الاتهامات والهجوم على

الآخر.

كما ظهرت على الساحة خلافات بين رجال الدين والعلمانيين فى قيادة العمل الكنسى. وأحس بعض العلمانيين أنه من حقهم أن يقوموا بدورهم فى العمل الكنسى.

أحس بعض الناس بضعف الجهاز الكنسى، أو انشغاله فى أمور -فى نظرهم- هى أقل أهمية من رسالة الكنيسة الأصيلة. فى مواقف عديدة واجه الشعب المسيحى مشكلة سيطرة الإكليروس على الكنيسة، وهم يحسون أن العلمانيين (غير الإكليروس) من رجال ونساء لهم دور أصيل فى الكنيسة. ولكى يقوموا بدورهم لابد من البعد عن الكنيسة الرسمية.

وهنا ظهرت كنائس تدعو إلى اللاطائفية، ثم ظهرت جماعات تدعو إلى اللاطائفية، وهى البعد عن الطوائف، والهروب من الإطارات الرسمية. هذه فِرَق تعمل وستستمر تعمل.

ظهرت بعد ذلك الحركة المسكونية التى تجمع بين الطوائف. وفى دعوتها أن تتحقق "وحدة فى تنوع". وهذه الحركة تجمع بين مجالس مسكونية عامة وإقليمية.

من خلال الحركة اللاطائفية ظهر أفراد ينادون بأنهم أحرار، وغير مرتبطين بكنيسة واحدة، وأنهم ينتمون إلى كل الكنائس، وأنهم لا يفرِّقون بينها. وأن انتماءهم الوحيد والأوحد هو إلى شخص المسيح فحسب.

الكنيسة مؤسسة إلهية، ولكنها أيضاً مؤسسة بشرية. فالكنيسة معرّضة للتنوع فى الفكر والعقيدة كتنوع البشر. والوحى متاح للمفكرين بما فيه من تنوع فى التفسير والشرح. فلابد من التنوع والتعددية. ومتى تحدثنا عن

وحدة الكنيسة، فنحن نتحدث عن "وحدة فى تنوع".

ولعله جدير بالذكر أن الله منذ البدء تعامل مع أسرة هى أسرة إبراهيم، ثم مع شعب هو شعب إسرائيل، ثم مع دولة. والله يتعامل مع كل شعوب العالم وكل مجتمعاته. ولعله أيضاً واضح أنه منذ بدء المسيحية، تجمع المسيحيون فى بلدة معينة وأسسوا كنيسة تضم المؤمنين بالمسيح فى هذه البلدة. فهناك الكنيسة التى فى رومية، وأفسس، وكورنثوس، وفيلبى، إلى غير ذلك...

ومسئولية تكوين جماعة مسئولية هامة. ففى الجماعة دفء الشركة، والانتماء، ينبع من ذلك النمو المشترك، والخدمة المشتركة. فالجماعة هى جسد المسيح. فالاهتمام المشترك بين الأعضاء والتنمية المشتركة تعطى دفء العلاقة والنمو كجماعة.

قالت چورچيا هاركنسن: أنا -ما أنا عليه- هو نتيجة انتمائى للكنيسة التى عشت فيها. فالكنيسة -ناجحة كانت أو متوسطة النجاح-، لها تأثيرها العميق على كل فرد فيها. فتواجد الجماعة معاً، يُنميِّها، ويدفعها للأمام. والهروب من الجماعة يترك الفرد وحيداً، فيضعف ويتراجع نموه.

"الشركة" الجماعية هدف أساسى من أهداف تواجد شعب الله، وعملهم معاً. ولابد للشركة من تأثيرات إيجابية على حياة أفرادها. فالعزلة لا تُنمى.

(١٨)

النضوج الروحى يتحقق من خلال الخلوة والمواظبة على الصلاة .

للخلوة والمواظبة على الصلاة قيمتها العظيمة للإنسان. فهى تعطى الإنسان قوة روحية هائلة. كما تعاونه على التركيز على ذاته وعلى رسالته. فكلما فكَّر وتعمَّق تقدم.

لكن النضوج الروحى يرتبط بإطار أشمل. فهو يرتبط بالقدرة على العمل والإنتاج، والقدرة على حمل المسئولية. فالإنسان المسئول، يقوم بعمله -أياً كان نوعه- ويحقق المسيرة المطلوبة فى الإنتاج والعمل.

والنضوج الروحى يرتبط بقدرة الإنسان على تحقيق ذاته، واستقلال شخصيته. فلا يعيش بأسلوب المحاكاة للغير. لكنه يرى نفسه- كما هو. يرى قدراته الشخصية وينميها حتى عندما يواجه المواقف المعينة تكون له قدرة إصدار القرار المناسب. وكلما نضج من خلال الدراسة والاختبار، كان قراره أقرب للصواب.

والناضج روحياً له قدرة الحكم الصائب على المواقف دون الحكم على الناس والأفراد. فهو يقبل الآخر ويتعامل معه من خلال الحوار البنَّاء. ولكنه يبدى رأيه، دون أن يفرضه على الغير.

تتحكم فى الإنسان كلما نضج قيم الحق والعدالة التى ترسى قواعد

التعامل مع الغير. وقدرات المحبة والسلام التى تُبنى على الحق والعدل تؤسس أروع علاقات بشرية.

ليس النضوج هدفاً فى حد ذاته، لكنه وسيلة لهدف هو تحقيق الحياة الأفضل والأشمل، بثمارها، ومشتملها، فالإنسان ينمو وينضج روحياً وعاطفياً وفكرياً فى وقت واحد. فالنمو يرتبط بالإنسان ككل.

المؤلف فى سطور :

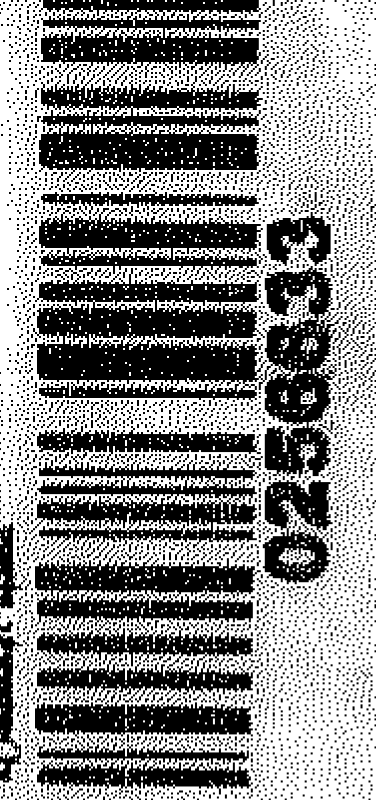
* ولد فى الواسطى (بنى سويف) فى ١٩٢٨/٢/٢٨
* نال درجة الماجستير فى الصحافة من جامعة سيراكيوز بنيويورك عام ١٩٥٥ والدكتوراه فى اللاهوت من سان فرانسيسكو (كاليفورنيا) عام ١٩٨٤ .
* حصل على ثلاث درجات دكتوراه فخرية من كليات مسكنجهام (أوهايو) عام ١٩٨٢ وإكزافيه (كندا) عام ١٩٩٤ وجامعة وستمنستر عام ١٩٩٥ .
* رحل عن عالمنا فى ١٩٩٧/١٠/٧ .

*ألف وترجم أكثر من ٦٠ كتاباً منها :

- الموعظة على الجبل [illegible] - طريق [illegible]
- المسيح [illegible] - الإدارة الكنسية .
- [illegible] فى فيلبى . - المرأة فى الكنيسة والمجتمع .
- الكنيسة والدولة . - لاهوت التحرر .
- فن قيادة الجماعات . - الكنيسة فى مجتمع متطور .
- تنظيم النسل: وجهة نظر مسيحية .

* آخر مؤلفاته :

- الخرافة . - مفاهيم خاطئة .





دار الثقافة

١.١.٣٩٣٢